محمد بن عبد الملك الزيات
صاحب التنور

بقلم
محمود الجرسي

مقدمة

سألنى سائل : لماذا آثرت الكتابة عن ابن الزيات ؟ فأجبته لأنه أسطورة فى طياتها الأعاجيب !! رجل خاض آباؤه تجارة الزيت ، وعرفوا بها ، وأريد له أن يكون مثلهم تاجر زيت ، فأبت ارادته القوية الا أن يكون أديبا ، والا أن يكون شاعرا ووزيرا فى أكبر بلاط عرفه التاريخ .

هذه هى الأسطورة ، التى تمثلت ارادة ، فعزما ، فمضاء ، والتى تجلت من خلال حياة هذا الرجل تصميما واقداما ، أقدمها للشباب العربى ، لأنه فى مرحلة تحتاج الى توفر الارادة والعزم والى تمثل سير البطولات والكفاح .

لقد انقضى زمان التواكل والمعجزة ، ولم يبق لمتبلد فى هذا الخضم سفين ، فلا أقل من أن نجلى للناس ألوانا من البطولات، يرونها من زوايا متعددة ، حتى لاتزل قدم ، ولا يبهم طريق ،لأننا فى حاجة الى القدوات التى تنير لنا السبيل .

لذلك أقدم حياة ابن الزيات صاحب التنور الذى تسلق قمة المجد ، لأنه صمم على تسلقها .. والذى ملأ الدنيا دويا ، لأنه كان ملء الأسماع علما وأدبا، والذى نفر من تجارة الزيت ، لأنه أراد أن يكون وزيرا والذى انتهت حياته فى التنور ، لأنه كان شعار حكمه !..

الفصل الأول
ملامح عصر ابن الزيات

— ١ —

ماذا كانت بغداد حين خرج الى دنياه محمد بن عبد الملك الزيات وليدا تتلقفه أيدى مستقبليه ، وتتنادى به البشائر فى دار أبيه عبد الملك بن الزيات ، أحد تجار كرخ بغداد المياسير ؟؟

كانت بغداد اذ ذاك عاصمة الدنيا ، ومقر الخلافة العباسية وملتقى الحضارات ، ومهبط آمال العلماء والمفكرين ، ومنتجع الكتاب والشعراء ، ومهوى أفئدة الطامحين فى الثراء والحظوة ، أو الطامعين فى فنون المتعة والترف ، وكان بلاط الرشيد فيها معقد الرجاء ، ومناط الأمل لكل هؤلاء ، ومن دون هذا البلاط قصور الأمراء والوزراء والكتاب والقادة وكبار التجار ، الذين تشبهوا بالرشيد ، فافسحوا فى مجلسهم لكل هذه الطوائف ، فقصدتهم من كل فجاج الأرض ، وحثث اليهم المطى تسيل بأعناقها الأباطح، وأناخت رحالها فى كنف رحيب ، وجناب خصيب ، وجوار وارف الظلال ، تنهل من حضارة سابغة ، أوفت على الغاية من خلاعة وجد ، وبلغت الذروة من مجانة ووقار !!

ولم تكن بغداد قد جاوزت الثلاثين من عمرها ، ولكنها فى هذا المدى القصير بدأت تتألق بين حواضر الخلافة الأخرى ، حتى حجبت نورها ، وتدفقت عليها الثروات من الأمصار ، واستبحر فيها العمران ، وأصبحت وحدها أم المدائن الاسلامية ، وموطن العلم ومجتمع العلماء ، وفاقت البصرة والكوفة ، وخطف بريقها على حداثة عهدها أنظار كل طامح ، وجذبت اليها العلماء ، والأدباء ، والشعراء ، والملهين والماجنين ، كل يبحث عن هواه فى بغداد ، وكل واجد فيها بغيته وطلبته .

وماكان لعاصمة العباسيين أن تتبوأ هذه المكانة المرموقة ــ وهى لم تشب عن الطوق بعد ــ الا بفضل ما كان لخلفاء هذه الدولة فى عهدها الأول من قوة الشكيمة ، ورجاحة العقل ، وحسن السياسة ، وبعد النظر ، ومضاء العزم ، وحب للأدب والعلم ، ومخالطة للعلماء والشعراء ، وتقدير لمكانتهم ، وتشجيعهم بالجوائز والعطايا التى تفوق الوصف ، وتأريث نار التنافس بينهم ، فكل الذين تولوا عرش بغداد فى هذا العصر الأول كانوا من الخلفاء العلماء ، فرغبوا فى العلم ، واجلال العلماء والأدباء ، وسهلوا نزوحهم اليهم ، وأجروا الأرزاق عليهم ، وبالغوا فى اكرامهم ، وقربوهم وجالسوهم ، وآكلوهم ، وحادثوهم ، وعولوا على آرائهم ، فلم يبق ذو قريحة أو علم أو أدب الا يمم دار السلام ونال جائزة أو هدية . أوراتبا (١) ، ولا يزهو العلم الا فى ظل

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٢ .

أمير يتعهده ، ويأخذ بأيدى أهله ، والناس كما يكون ملوكهم ، وخلفاء العصر العباسى الأول من أكثر الخلفاء والملوك رغبة فى العلم ، فى عصرهم تنوعت الثقافة ، وعمقت ينابيعها ، واستمتع العلماء والأدباء بحرية القول،والتأليف فىحدود مايقرهالاسلام... وكان بعض العلماء والأدباء ينادم الملوك والأمراء ، ويستمتع بمقام أرفع من مقام الوزراء والكتاب .

وقد زخرت كتب الادب والتاريخ بما كان عليه خلفاء هذا العهد من مكانة علمية وأدبية : فالمنصور كان من أحسن رواة الحديث ، وله ذوق فى الشعر ، ينتقد الشعراء ، ويعرف المنحول والمسروق ، وكان له دفاتر علم (١) ، وكان شديد الحرص عليها ، حتى أوصى ابنه المهدى بها عند وفاته . وكان المهدى ينتقد الشعراء لكثرة تشبيبهم قبل المدح ، لأنه كان يكره الغزل ، وقد روى (٢) صاحب الأغانى عن أبى جعفر المنصور أنه لما مات ابنه جعفر ، وانصرف الى قصره بعد دفنه ، قال لوزيره الربيع :

« انظر فى أهلى من ينشدنى قصيدة أبى ذؤيب : « أمن المنون وريبها تتوجع » حتى أتسلى عن مصيبتى .فطلب الربيع ذلك من بنى هاشم ، فلم يجد من يستطيعه . فقال المنصور : والله لمصيبتى بأهل بيتى ألا يكون فيهم واحد يحفظ هذا لقلة رغبتهم فى الأدب أعظم

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ .

(٢) الاغانى الجزء السادس .

وأشد من مصيبتى بابنى !! ثم أمر الربيع أن يحضر له من ينشده اياها من بين العامة ، وجد الربيع حتى أحضر له شيخا كبيرا مؤدبا، وبدأ الشيخ ينشد القصيدة حتى قال : « والدهر ليس بمعتب من يجزع » ، فقال المنصور : صدق والله ، أنشدنى هذا البيت مائة مرة ليتردد هذا المصراع على ، ففعل الرجل ، فلما انتهى الشيخ من الانشاد خرج وفى يده صرة بها مائة درهم رغم ماعـرف عن المنصور من شح وبخل .. أما الرشيد ـ الذى استقبل ابن الزيات حياته فى عهده ـ فقد كان (١) اكثر الخلفاء رغبة فى العلم والعلماء حافظا للشعر ، نقادا للشعراء ، وكان يحفظ شعر ذى الرمة حفظ الصبا ، ولقد سأل جلساءه يوما عن صدر هـذا العجـز من الشـعر :

« ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه ؟ »

فلم يعرفه أحد ، وكان الاصمعى مريضا لايقدر على المجىء ، فأرسل اليه اسحق الموصلى ، وبعث معه ألف دينار لنفقته ، فجـاء الجواب من الأصمعى أن البيت من قصيدة لأبى النشناش النهشلى وهـو :

وسائلة أين الرحيـل وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه

وسأل الرشيد من فى مجلسه يوما عن معنى هذا البيت :

---

(١) الاغانى ج ٥ والمزهر ج ١ .

قتلوا ابن‌عفان الخليفة محرما ورعا فلم أر مثله مخذولا

وكان فى المجلس الكسائى والأصمعى ، فطال الجدال بينهما والخليفة يسمع ، فقال الكسائى : كان قد أحرم بالحج . فضحك الأصمعى ، وتهاتف ، فقال الرشيد : ما عندك؟فقال : والله ماأحرم بالحج ، ولا أراد أيضا أنه دخل فى شهر حرام ، فقال الكسائى : ماهو الا هذا ، والا فما المعنى للاحرام ؟ قال الأصمعى : فخبرنى عن قول عدى بن زيد :

قتلوا كسرى بليل محرما فتولى لم يمتع بكفن

أى احرام لكسرى ؟! فقال الرشيد : فما المعنى ؟ قال : يريد أن عثمان لم يأت شيئا محرما يوجب تحليل دمه . فقال الرشيد : أنت يا أصمعى ما تطاق فى الشعر ..

وأعطى الرشيد الفضل خاتما قيمته ستمائة والف دينار مكافأة له على روايته لأحسن بيت قالته العرب فى الذئب ، وولى المأمون ابن الجهم البرمكى ولاية من أجل بيت طلبه منه ، واشترط عليه ذلك . والمأمون أشهر من أن يذكر بعلمه وفضله .

ولقد كان أبناء الخلفاء والأمراء يتمتعون بمثل هذه الثقافة الرفيعة التى يتحلى بها الخلفاء ، فقد اشتغل كثير منهم بالأدب « كابراهيم بن المهدى » (١) أول من نبغ من بنى العباس فى

(١) تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الثانى.

الترسل والشعر والموسيقى ، وله كتاب فى الأدب اسـمه « أدب ابراهيم » وكتاب الطبخ والطب ، وكتاب الغناء ، وقد ضـاعت كلها ، واعتبر ذلك أيضا فى الأمراء والوزراء كأبى دلف العجلى سيد قومه ، فقد كان اديبا ، وألف فى سياسة الملوك والسـلاح والصيد ، والفتح بن خاقان وزير المتوكل فقد كانت له خـزانة علم لم ير أعظم منها كثرة وحسنا ، وكان يحضر داره فصـحاء الأعراب ، وعلماء الكوفة والبصرة ، واشتغل بالأدب لنفسه ،فألف كتاب اختلاف الملوك ، وكتاب الصيد والجارح ، وكتاب الروض والزهر . وكان عبد الله بن طاهر شاعرا مترسلا بليغا وكذلك ابنه طاهر ، ولكل منهما مجموع رسائل . فالدولة التى يكون ملوكهـا وأمراؤها على هذه الصورة يجدر بها أن تزهو بالعلم والعلمـاء ، ولن تجد نهضة الا كان للملك أو الأمير أو الرئيس تأثير كبير فيهـــا .

من أجل هذا تسابق الناس فى هذا العصر فى مضمار الثقافة والأدب والعلوم والفنون ، ليكونوا قريبين من نفوس خلفـائهم وأدنى الى قلوبهم « ذكر اسامة بن معقل (١) أن السفاح كان راغبا فى الخطب والرسائل ، يصطنع أهلها ، ويثيبهم عليها ، فحفظ أسامة ألف رسالة وألف خطبة طلبا للحظوة عند السفاح ، فنال ما أراد. وذكر أن المنصور كان شغوفا بالأسمار والأخبار وأيام العـرب ،

---

(١) الدكتور احمد الحوفى فى كتاب الجاحظ .

يقرب أهلها ، ويجيزهم عليها ، فحفظ أسامة كثيرا منها طلبا للقرب منه وذكر أن الهادى كان مغرما بالشعر ، يستخلص أهله ، فلم يترك أسامة بيتا نادرا ، ولا شعرا فاخرا ، ولا نسيبا سائرا الا حفظه » .

وعنى الخلفاء والقادة والموسرون فى هذا العصر بتربية أولادهم وتأديبهم على أيدى المؤدبين ، ولهذا صار التعليم صناعة ، وتبوأ المؤدبون مكانا عاليا ، وأحرزوا ثروات كبيرة . وهذه وصية الرشيد لعلى بن المبارك الأحمر ، مؤدب ولده الأمين تلمس فيها منهج هؤلاء الخلفاء فى تنشئة أولادهم ، وأخذهم اياهم بكل ألوان المعرفة ، وأدب السلوك ، فهو يقول فى وصيته : « يا أحمر ! ان أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، وصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين: أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك الا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم بنى هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتنم فائدة تفيده اياها ، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، أو تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة » .

هذا هو ماجعل من بغداد على جدتها وحداثة عهدها كعبة للعلوم والفنون ، ومسرحا لكل ألوان الترف العقلى والمادى ، فاستقبلت ابن الزيات وليدا فى أوائل عهد الرشيد ، ثم تقلب فى أعطاف هذا العهد صبيا ، يدرج فى ملاعب الكرخ ، ثم شابا تتفتح مشاعره على أزهى عصور العباسيين ، وتبهر ناظريه مفاتن بغداد، وتأسر لبه مباهجها وهى فى أوج عظمتها ، وقمة حضارتها ،واتساع سلطانها . يقول جورجى زيدان (١) عن هذا العصر : « انه عصر الاسلام الذهبى ، بلغت فيه دولة المسلمين قمة مجدها فى الثروة والحضارة والسيادة ، وفيه نشأت أكثرالعلوم الاسلامية ، ونقلت أهم العلوم الدخيلة الى العربية ، وكانت دور الخلفاء آهلة بالأدباء والشعراء والعلماء مثل بلاط لويس الرابع عشر ملك فرنسا فى ابان مجده » . ويقول الدكتور الحوفى (٢) « فى هذا العصر تدفقت الثروات من ينابيع شتى ، وأقبل أهل الذمة على الزراعة والصناعة واهتمت الدولة بما يكفل للزراعة قوتها من شق القنوات ،وعززت الصناعة ولا سيما النسج ، واستخرجت المعادن من مناجم فارس ، واحتكر العرب تجارة المحيط الهندى حتى الصين ، وصار البحر الأبيض المتوسط مجالا عربيا ، وكانت البصرة ميناء العراق الكبرى

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ .

(٢) كتاب الجاحظ للدكتور الحوفى

مرفأ عالميا ، وامتلأت خزائن الدولة بالمال ، وتعددت مظـاهر الثراء والتـرف » .

كانت الجزية تحمل الى بيت المال فى خلافة الرشيد من ملوك الروم بالقسطنطينية طوال مدة حكمه ، وكانت العلاقات السياسية بينه وبين شارلمان ملك فرنسا موسومة بطابع الود والتقـدير لمكانة العباسيين وسطوتهم ونفوذهم،وكانت تحمل اليه من فرنسا التحف والهدايا يقدمها السفراء بين مظاهر التبجيل والتعظيم لمقام الخلافة . « واتصلت (١) بغداد بتجارة واسعة مع بقاع العـالم التى كانت معروفة فى ذلك العهد ، وتدفقت اليها الثروات ،وظهرت فيها طبقة من أغنياء التجار ومياسيرهم ، وأصبحت سمعة بغـداد وجمالها وغناها ، ومركزها التجارى ، وثقافتها ، وألوان الملذات والسرور فيها ، وصنوف الرخاء والترف مشهورا فى العالم كله ، وما استطاع الرحالة أن يجدوا لبغداد فى عهد الرشيد نظيرا »

يقول ابن طباطبا : « كانت دولة الرشيد من أحسن الدول ، وأكثرها وقارا ورونقا وخيرا ، وأوسعها رقعة مملكة ، جبى الرشيد معظم الدنيا ، ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشـعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والأدباء ما اجتمـع على باب الرشيد ، وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ، ويرفعه الى أعلى درجـة » .

---

(١) كتاب فى قصور لخلفاء العباسيين للدكتور أحمد شلبى .

ويقول الدكتور أحمد شلبى (١) : « ان عهد الرشيد كان خطوة لنقل الدولة من عهد الصرامة والشدة فى أيام السفاح والمنصور ، الى عهد طابعه اليسر والرخاء والترف ، وكانت شخصية الرشيد والبيئة التى ربى فيها من أهم الأسباب التى جعلت الرشيد يستجيب لهذا التطور ، ويتفاعل معه ، فبلغ عهده الذروة فى الترف والنعيم ، وتوافرت له الدواعى التى جعلت منه عهدا ملحوظا ، ذائع الصيت ، لا فى العالم الاسلامى فحسب ، ولكن فى العالم المتمدين كله. وساعده على ذلك شبابه الغض ، وقصر أبيه الذى نشأ فيه ، ورجاله الذين حملوا عنه أعباء الحياة ومسئوليات الملك ، ومهدوا له سبيل الترف (٢) وأسباب النعيم . ثم ان من المسلم به أن المال عصب المتعة وسلم الترف ، وقد توافر المال لدى الرشيد ولدى رجاله ، حتى قال ابن خلدون : « ان المحول الى بيت المال فى أيام الرشيد بلغ ٧٥٠٠ قنطار فى كل سنة ، وذلك غير الضرائب العينية التى تشمل الحبوب والأقمشة وغيرها » وايراد كهذا فى تلك الأيام كان ايرادا أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة ، وما بالك فى خليفة كان يستلقى على ظهره وينظر الى السحابة المارة ويقول: امطرى حيث شئت يأتنى خراجك !! وأصبح بهذا عهد الرشيد عهد شباب الدولة

---

(١) كتاب فى قصور الخلفاء العباسيين .

(٢) لم يتخفف الرشيد من مسئوليات الملك كما يقول الدكتور شلبى لانه كان يغزو سنة ويحج سنة كما هو مشهور . وفى ذلك يقول الشاعر :

فمن يطلب لقاءك أو يرده ... فبالحرمين أو أقصى الثغور

ونضارتها ، وهو يعتبر فى الذروة من عهود بنى العباس ، وقد وصلت فيه بغداد الى قمة مجدها ، ومنتهى فخارها ، وامتدت الابنية على الجانبين امتدادا عظيما ، حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الاربعين ، وبلغ سكانها نحوا من مليون نسمة »

ولقد كان أبو جعفر المنصور بعيد النظر حين رأى أن ينتقل بملكه الجديد الى عاصمة جديدة تناسب الأحداث الجسام التى بدأ يتمخض عنها العصر العباسى الأول ، ويتفق موقعها ومكانتها مع ماينتظر لهذا الملك الجديد من سلطان عريض فى مشرق الأرض ومغربها ، فالكوفة التى نشأت فيها الدولة العباسية لم تكن بدار قرار لهذا الملك الناشىء الجديد ، لأن سوادها شيعة على وولده ، ودمشق حاضرة الأمويين لم تكن تصلح عاصمة للخلافة الجديدة ، لأنها كانت لاتزال هى وماحولها من البلاد على ولاء لبنى عبد شمس ، ثم السيوف التى أشرعت فى سبيل الدعوة لبنى العباس ، واقامة ملكهم كانت سيوف الموالى من الفرس وأهل السواد ، وفى طليعتهم الخراسانيون ، الذين بذلوا أرواحهم فى تأييد الدعوة منذ خرجت من الحميمة ، كل هذا دفع بالمنصور الى أن يختط عاصمة ملكة فى هذا المكان قريبا من اسناده ودعائمه ، وعلى حدود البلاد التى آزرته فى دعوته ، ومكنت له من رقاب بنى أمية ، ثم اتخذ هؤلاء الموالى أعوانا ووزراء وقادة ، ونهج خلفاؤه من بعده على سنته ، فاستكثروا من استخدام الموالى فى سياسة الملك وتدبيره ، حتى استشرى سلطانهم ، وعظم نفوذهم

واصطبغت الدولة بصبغة فارسية ، وكاد يختفى من بلاط بغداد وجهه العربى الخالص ، الذى ظل طابع البلاط الأموى طوال حكم بنى أمية ، وأخذ الخلفاء يتواصون بالموالى وحسن معاملتهم .. والاحسان اليهم ، حتى بلغوا اسمى المناصب ، وساعدهم على ذلك حذقهم سياسة الملك ،واتساع ثقافتهم ،ونبوغهم فى البلاغة ،وحبهم للعلم واجلالهم للعلماء . ومن أشهر هؤلاء أبو سلمة الخلال ،الذى ولاه السفاح منصب الوزارة لاول مرة فى تاريخ الدولة الاسلامية ويحيى بن خالد بن برمك ، وولداه الفضل وجعفر ، والحسن بن سهل ، وأخوه الفضل ، وسهل بن هرون وأضرابهم . وقد استفحل أمر هؤلاء الموالى حتى أخذوا يجهرون ازاء العرب بمآثرهم ، ويتغنون بأمجاد اسلافهم ، ويشيدون بمدنيتهم ،وانطلقوا فى ظلال الدولة الجديدة ينفسون عن مكبوت حقدهم ، ودفين غيظهم طوال عهد بنى أمية ، واشتدت الملاحاة بينهم وبين العرب ، حتى ظهر أمر الشعوبية ، وعلا صوتها ، ونبغ من هؤلاء الموالى طائفة كبيرة من العلماء والأدباء والشعراء ورجال الفكر والمترجمين ، غير أن قوة الخلفاء فى العصر العباسى الأول لم تمكن هؤلاء من التطاول بنفوذهم ، وبسط سلطانهم ، لأن خلفاء هذا العهد كانوا يعتزون بعروبتهم ، ويفخرون بأمجاد آبائهم ، ويحرصون على بقاء السلطان فى يدهم ، حتى أن كثيرين منهم قد أوقعوا بهؤلاء الموالى — رغم سمو مراكزهم — حينما لمسوا فيهم ميلا الى الانحراف ، أوالتحيف ن سلطانهم ، : فالسفاح قتل وزيره الفارسى أبا سلمة الخلال ،

والمنصور قتل قائده الكبير أبا مسلم الخراسانى ، والرشيد فتك بالبرامكة، والمأمون قتل وزيره الفارسى الفضل بن سهل ، والمعتصم سجن قائده الأفشين حتى مات ، ثم صلب جسمه وأحرقه ، على أن كل هذه الاغتيالات لم توقف تيار الشعوبية (١) .

— ٣ —

وما ان أنشأ المنصور بغداد عام ١٤٦ هـ حتى بدأت الدولة ترسى قواعدها على دعامات ركينة من علوم الأمم التى جاورتها أو اختلطت بها ، واستقدم الخلفاء النقلة من كل جنس وملة ، وبدأ العلماء فى تدوين العلوم الشرعية واللسانية وتبويبها ، وألفوا فى بعض العلوم التى نقلوها الى لغتهم (٢)، « وأضافوا اليها من عند انفسهم ،وأكثر منقولاتهم ومؤلفاتهم ضاعت ، ولم يبق منها الا بعضها ، وعلى هذا البعض كان معول الأوربيين فى نهضتهم الاخيرة ، بما نقلوه منها الى ألسنتهم ، وقد نقل العرب من علوم تلك الأمم فى قرن وبعض قرن مالم يستطع الرومان بعضه فى عدة قرون ، وخلاصة القول أن المسلمين نقلوا الى لسانهم معظم ماكان معروفا من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضات والأدبيات عند سائر الأمم المتمدنة فى

---

(١) ممن طعن على العرب سهل بن هرون قيم بيت الحكمة ، وأبو عبيدة الراوية وعلان الشعوبى ، وكلهم من بطانة المأمون ، وممن نافح عن العرب ابن قتيبة الذى ألف كتابا فى تفضيل العرب ، والجاحظ فى كتابه البيان والتبيين

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ .

ذلك العهد ، ولم يتركوا لسانا من ألسن الأمم المعروفة اذ ذاك لم ينقلوا منه شيئا ، فأخذوا من كل أمة أحسن ما عندها ، فكان اعتمادهم فى الفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان ، وفى النجوم والسير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقى على الفرس ، وفى الطب (الهندى) والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقى والأقاصيص على الهنود ، وفى الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم على الانباط أو الكلدان ، وفى الكيمياء والتشريح على المصريين . فكأنهم ورثوا أهم علوم الأشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان ، وقد مزجوا ذلك كله واستخرجوا منه علوم التمدن الاسلامى الدخيلة » .

ولما عمرت بغداد تقاطر اليها الناس من كل صوب وحدب ، وقصدوها للارتزاق بالتجارة أو الصناعة أو الأدب أو الشعر أو بمختلف أسباب الملاهى ، واختلطت فيها الاجناس ، فالتقى فيها العربى والفارسى ، والرومى والنبطى ، والتركى والصقلى ، والهندى والبربرى ، وزخرت بمختلف العقائد والنحل ، فكان فيها المسلم والنصرانى واليهودى والصابئى والسامرى والمجوسى والبوذى وغيرهم ، فترددت فى سمائها مختلف الدعوات ، وكثر فى مجالسها الجدل والتلاحى ، وأطلق الخلفاء العنان لحرية الرأى والعقيدة ، الا فيما يمس الخلافة أو الدولة ، وكان المأمون أكثر الخلفاء تسامحا فى العقيدة ، فكان هو نفسه شيعيا ، وكان وزيره يحيى بن اكثم

سنيا ، وقاضيه أحمد بن ابى دواد معتزليا . (١) « وكانت حرية القول فى أيامه أشبه بحرية الصحافة فى البلاد المتمدنة اليـوم ، ومن أشهر الأدلة على ذلك خبره مع دعبل الشاعر ، وكان متشيعا للعلويين ، كثير الهجو لبنى العباس ، وله فيهم قصـائد هجوها شديد ، وأعداؤه يحرضون المأمون على قتله ، ومن جملتهم أبو سـعد المخزومى ، فقد كان مغاضبا لدعبل فى أول أمره ، وكان يدخل على المأمون فينشده هجاء دعبل له وللخلفـاء ، ويحرضه عليه .. فلم يجد عند المأمون ما أراده فيه ، وكان المأمون يقول :

« الحق فى يدك ، والباطل فى يد غيرك،والقول لك ممكن ،فقل مايكذبه ،فأما القتل فانى لست أستعمله الا فيمن عظم ذنبه »ودخل أبو سعد على المأمون غاضبا من هجاء دعبل له وقال : « أتأذن لى ياأمير المؤمنين أن أجيئك برأسه ؟ قال المأمون : لا . هذا رجل فخر علينا فافخر أنت عليه ، فاما قتله بلا حجة فلا .. وهل يقول أعدل من ذلك ملك أو أمير فى أكثر الأمم حرية رأى ؟» .

وكان من نتائج هذه الحرية ما أشار اليه أكثـر المؤرخين من « تعدد البدع الدينية (٢) ، حتى انتشرت الزندقة ، وفشا الالحاد وغلبت الشهوات الجسمية على طائفة الماديين المستهترين ، فأباحوا

---

(١) نفس المصدر . ومن هجاء دعبل للمأمون فى احدى قصائده :

ويسـومنى المأمون خطة جاهل ... أو ما رأى بالأمس رأس محمد

(٢) تاريخ الأدب العربى للسباعى بيومى ج ٢ .

مالم يكن مباحا ، ومدحوا ماكان من قبل مذموما ، وفتحت في الأبحاث الدينية أبواب كانت مغلقة لم تكن تجرى من قبل على الألسنة وتخطى الجدل فى الدين ـ بالرغم من مقاومة الخلفاء لتيار الزندقة والالحاد ـ السياج الذى كان مضروبا ، وساعد على هذا الانحراف التمكين لرجال الفرس فى السلطان ، ونشاط اليهود والنصارى فى أمثال هذه البحوث ، متسترين وراء حاجة الدولة الى علمائهم وتقريب خلفائها وخاصتها لكثير من موهوبيهم » . ولذلك كثرت الفتن والثورات فى هذا العهد ، فثار العلويون فى كثير من أنحاء الدولة ، وقامت ثورة فى الجزيرة وفارس بقيادة سونباذ المجوسى للاخذ بثأر أبى مسلم الخراسانى ، وهبت ثورة الراوندية فى خراسان فى عصر المنصور ، وثارت المقنعة فى عصر المهدى بقيادة هاشم بن حكيم المعروف بالمقنع ، وماكاد المهدى يقضى على هذه الثورة حتى دوى نذير ثورة المحمرة فى جرجان (١) « وهم طائفة اتخذوا اللباس الأحمر شعارا لهم وتعاليمهم خليط من المانوية والمزدكية نشروها بين الناس ، وفى عهد المأمون ثار بابك الخرمى، ودعا الناس الى اعتناق مذهبه الاباحى من خمر ونكاح للمحرمات واجتراء على المناكر واللذات ، وكان يزعم لاتباعه انه اله ، ولم يفلح المأمون فى القضاء على هذه الفتنة فظل بابك يسيطر على بلاد الجبل حتى انتصر عليه الأفشين قائد المعتصم سنة ٢٢٣ هـ » .

---

(١) نفس المصدر ج ٢ .

وظهر فى ذلك العهد طائفة جديدة من الشعراء والادباء يتباهون بالمفاسد وارتكاب المعاصى والتهجم على الدين والتقاليد ، واشاعة البدع، والاستهتار بكل مكرمة ،والعكوف على الشراب ومجالسة الغلمان أياما لايفترقون.. (١) « وكانوا يجتمعون للمنادمة وقول الشعر والشراب ، يهجو بعضهم بعضا هزلا وجدا ، ويشتركون فى أموالهم وأحوالهم ، فكأن مطيع بن اياس ، ويحيى بن زياد الحارثى ، ووالبة بن الحباب ، وابن المقفع يتنادمون ولا يفترقون، ولا يستأثر أحدهم على صاحبه بمال ولا ملك ، وكانوا جميعا يرمون بالزندقة . وكان هؤلاء وأضرابهم ينظرون الى الدنيا من وجهها الاسود ، فلا يرون فيها حسنا،ولا يعترفون لأحد بفضيلة. ذكروا أن مطيع بن اياس مر بيحيى بن زياد الحارثى وحماد الرواية وهما يتحادثان ، فقال لهما : فيما أنتما ؟ قالا : فى قذف المحصنات قال : أو فى الأرض محصنة تقذفانها ؟ »

على أن هذا كله لم يحجب عن سماء بغداد تلك النجوم اللامعة التى أضاءت جنباتها بنور الايمان والعلم ، وكانت حصنا حصينا للدين واللغة العربية أمام موجات الالحاد والشعوبية ، فكان من أئمة الحديث والفقه فى العصر العباسى الأول : ابن جريج ، وأبو حنيفة ، ومالك بن أنس ، وأبو يوسف ، والشافعى ، والواقدى ، وأحمد بن حنبل . ومن ائمة اللغة والنحو : الخليل بن أحمد ،

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ه.

وسيبويه ، والكسائى ، وقطرب ، والفراء ، وابن الأعرابى . ومن رواةأخبار العرب وأيامهم وآدابهم وأشعارهم : أبوعمرو بن العلاء وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعى ، وأبو زيد الانصارى ، والمفضل الضبى ، وخلف الأحمر ، وغير هؤلاء ممن كانوا ذادةعن الدين واللغة أمام هذا التيار الجارف من الانحراف ، والذى كان يحاول النيل من دين العرب ، ولسان العرب . وفى هذا يقول الدكتور الحوفى (١) : « ان المجون بأشكاله المنوعة لم يكن طابع العراق ، والزندقة لم تكد لتقرب من أن تكون مرضا شبه عام ، بل كان المجون محدودا فى دائرة خاصة ، وكانت الزندقة سمة بضع عشرات من الناس اكثرهم من نسل الفرس ، ولولا قلة عدد الزنادقة والمجان ما سجلت الكتب اسماءهم وأحداثهم ، فمن الخطأ أن نصم العراق فى العصر العباسى بأن المجون طابعه ، والزندقة شعاره ، وكيف نغفل عن جمهرة الشعب وهم مؤمنون حراص على دينهم ؟ وهل من الانصاف أن تتجاهل تعقب الدولة للزنادقة وتقتيلهم ؟ وكيف تتغاضى عن آلاف العلماء وهم أصحاب جد وورع سواء منهم علماء الدين ، أو علماء اللغة والأدب ؟ وليس من الصواب أن نصف عصرا ما بالجد المطلق ، ولا أن نصم عصرا ما باللهو المطلق ، وليس من الحق أن نصور مجتمعا ما بصبغة نفر منه لأن هذا تعميم لا يصح أن يتجاوز نطاق التخصيص ، وهؤلاء النفر الذين اشتهروا فى العراق بالزندقة والمجون ماهم الا قلة فى المجتمع

---

(١) الجاحظ للدكتور احمد الحوفى .

الكبير ، قلة منحرفة وسط كثرة لاتشاكلهم فى الدين والنـزعات والأخلاق ، فمن الظلم للمجتمع العـراقى فى العصر العباسى أن نصوره مجتمعا منحلا اباحيا مستهينا بالدين حتى فى بغداد نفسها كما صوره الدكتور طه حسين فى كتابه « حديث الأربعاء » ولكن الحق أنه كان مجتمعا متعدد الألوان والنزعات ، وكان فى بغداد الحاد وزندقة ومجون ، ولكن هذه النزعة كانت أنصل النـزعات لونا ، وأقلها عددا ، وشـذوذها كان السبب فى شهرتها ،ومعرفة أصحابها ، لأنها خروج عن المألوف ، ومصادمة للمجتمع ، وتبجح بضد المعروف ، ومن شأن الشاذ أن يذيع خبره ويشيع » .

على أننا لانستطيع أن ننكر مع هذا الدفاع الحار عن سـمة العصر العباسى وطابعه انه عصر تميز عن العصور التى سـبقته بحرية الرأى فى العقيدة والأدب ، وبالانغماس فى الترف والنعيم الى أبعـد الآماد .

— ٤ —

ولقد استتبع كل هذا تغيرا خطيرا فى الحياة الاجتماعية فى هذا العصر ، فاذا بنا أمام مجتمع جديد لم يألفه العرب فى صدر الاسلام ، ولا فى أيام بنى أمية ، أيام كان شعارهم التبسط فى معاشهم وطعامهم ولباسهم ومسكنهم ، فخرج النـاس عن الفهم وعادتهم فى المجتمع الجديد ، فابتنوا القصور الشاهقة تحف بها

الحدائق ، وتجرى من تحتها الأنهار ، ولبسوا الخز والديباج والحرير ، وافتنوا فى صنوف الاطعمة والانفاق على المطابخ ، حتى صار لكل لون من ألوان الطعام خدم عليهم رئيس ، واستأنسوا الجوارح للصيد والطراد ، وملئوا دجلة بالحراقات التى تشق الماء بالجوارى والقيان ، وتعددت مجالس اللهو والشراب والطرب ، ورفعت القباب على مجالس الخلفاء والخاصة ، وزينت جدرانها وسقفها بصور من الذهب والفضة ، وتأنق الخلفاء والندماء فى تزيين مجالسهم ببسط الديباج وستائر الحرير المطرزة ، وافتنوا فى أزياء المنادمة يلبسونها مضمخة بالعطر والأزاهير ، وافسحوا فى مجالسهم للخلعاء والمجان والملهين من جميع الأمصار . وشاع فى هذا العصر تسرى الجوارى ، وتكاثرهن بما لم يسبق له مثيل ، وأصبحت قصور الخلفاء تمتلىء بهن من جميع الاجناس والنحل ، فبلغ عددهن عند الرشيد ألفى جارية ، وعند المتوكل أربعة آلاف غير القيان ، وباتوا يتهادون هؤلاء الجوارى كما يتهادون الحلى والجواهر ، واصبح شعار العهد هذه الكلمة المأثورة : « عجبت لمن عرف الاماء كيف يقدم على الحرائر ؟ » . ولهذا كان خلفاء هذه الدولة من بعد المهدى من أبناء السرارى ــ فيما عدا الأمين . فالهادى وأخوه هارون كانت أمهما رومية ، والمأمون أمه فارسية ، والمعتصم أمه تركية ، والواثق امه رومية ، والمتوكل أمه تركية وهكذا ، ومما نكب به هذا العهد نتيجة اختلاط الأمم ، وشيوع

الفساد والانحلال تسرى الغلمان (١) ، والتفنن فى تزيينهم وتجميلهم واستخدامهم كالجوارى فى قصور الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة ، حتى باتوا يحجبونهم كما يحجبون النساء ، وأصبح كبار الشعراء يشببون بهم فى مجالس الشراب واللهو والغناء ، وأصبح الغزل فى المذكر غرضا جديدا من أغراض الشعر فى ذلك العصر .

« ولم يقتصر هذا الانحلال على الموالى (٢) ، لأن أبناء العرب ـ بحكم الاختلاط ـ قد فقدوا شخصياتهم ، وصاروا وأبناء الأمم المذكورة سواء ، ثم أقل من السواء ، وأصبحوا يحاكونهم محاكاة المغلوب للغالب ، فانغمسوا فى شرورهم غير مبالين ، وتعودوا من عاداتهم ماكانوا عنه مبعدين ، ولقد ولد هذا الاندفاع الشديد فى تيار الحضارة تقديسا للماديات ، اشباعا للنهم والجشع ، فأحب

---

(١) من أقبح أسباب التهتك فى ذلك العصر تسرى الغلمان ، ونظرا لكثرة تردد الشعراء على مجالس الانس والطرب اصبحت تلك العادة أكثر شيوعا فيهم ، وبلغ من مجونهم أن يشترك بضعة رجال منهم فى عشق غلام . وقد يتوسط الشاعر فى المصالحة بين عاشقين لاصلاح ذات البين ، ويفعلون أقبح من ذلك فى مجالسهم كما كانوا يفعلون فى بيت اسماعيل القراطيسى الكوفى ، حيث كان يجتمع عنده ابو نواس وابو العتاهية ومسلم بن الوليد وحسين الخليع ، حيث يعكفون على الخلاعة والشراب .. الأغانى ج ٩ ـ ١٩٨ ، ج ١٢ ـ ١٠٥ .
ويقول جورجى زيدان : اذا أعملت الفكرة فيما لحق بعض الخلفاء وامراء من الفساد لرأيته راجعا الى من يتولى تربيتهم من الخاصة أو الشعراء . فجعفر ابن المنصور افسده مطيع بن اياس ، والامين أفسده حسين بن الضحاك وأبو نواس (تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢) .

(٢) تاريخ الأدب العربى للسباعى بيومى ج ٣ .

الناس المال حبا جما ، وانطلقوا وراء الحصول عليه انطلاقا أعمى لا يفرق بين حلال وحرام ،فتنوعت طرق السلب والابتزاز ، وانتشرت حيل الغش والخداع ، وأصبحت الرشوة عاملا فعالا من عوامل نيل الغرض ، واقتناء الثروات » .

يقول الدكتور الحوفى (١) عن الحياة الاجتماعية فى هذا العصر « ولاشك فى أن هذه الحضارة جرت معهـــا أنواعا من الشرور والمفاسد ، فضعفت اخلاق كثير من الناس ، واشتد شره بعضهم الى المال يجمعونه من طرق الحلال وطرق الحرام ، وتنوعت وســائل الغش ، وذاعت الرشوة ، حتى ان الخلفاء كانوا يصادرون أموال الوزراء والولاة من حين الى آخر لأنهم جمعوها من الرشــوة وما يشبهها » .

ولقد دفع حب المال شعراء هذا العصر الى الاسراف فى المديح اسرافا تجاوزوا به حد الذوق ، وخرجوا به عن المألوف عقــلا وشرعا ، وأصبح شعارهم هو التكسب بالشعر ،وجمع الثروات عن طريقه، وانتجاع كل من يرون فيه بارقة أمل تدنيهم من مطامعهم ولو كان فى أقصى الأرض ، حتى عدت ثروات بعضهم بالآلاف : ذكر صاحب الأغانى (٢) : «أن سلما الخاسر خلف ثروة مقدارها خمسون ألف دينار ، ومن الدراهم ألف ألف درهم غير الضياع ، وأن مروان ابن حفصة بلغت جوائزه مرارا مائة الف دينار ، وأن البحترى قد

---

(١) الجاحظ للدكتور أحمد الحوفى .

(٢) ج ١٢ .

فاض كسبه وزاد حتى كان يركب فى موكب من عبيده وغلمانه ، ومثلهم فى هذا بقية الشعراء ، هذا غير مبذريهم الذين كانوا يفوقونهم كسبا وثراء ولكنهم لايبقون على شيء ، كأبى نواس(١)»

ولقد فتح كل هذا أمام اللغة العربية : نثرا وشعرا آفاقا جديدة لم يكن يرتادها اللسان العربى فيما سبق ، فكثرت الأغراض وتنوعت ، وتشعبت الدواوين واستحدثت لها لغة تناسبها ، وتطورت المعانى والأفكار والألفاظ والأساليب ، فزاد شيوع المعانى الدقيقة ، والافكار الطريفة ، والاخيلة الرائعة ، وكثر الاقتباس من الكتاب والسنة والحكم والامثال ، وجنح الاسلوب الى التهويل والغلو والتفخيم والمبالغة جريا على عادة الفرس، ورقت

---

(١) ان هذه الثروات التى تدفقت على الشعراء فى ذلك العصر تدل على ما كان للشعر من مكانة كبيرة فى المجتمع العباسى ، حتى بلغ من شغف الناس بالشعر أنهم نقشوه على جدران منازلهم وأنديتهم ، وعلى فصوص خواتمهم ، وكتبوه فى صدور مجالسهم ، وعلى القباب والمستنظرات والابواب ، وطرزوه على الستائر والطنافس والكلل والأسرة والوسائد والمرافق والمقاعد ، وعلى القنانى والاقداح والكاسات والارطال والجامات وسائر آنية الفضة والذهب والصينى، ونقشوه على العيدان والمضارب والسرنايات والطبول والمعازف والدفوف ، وزينوا به الثياب فطرزوه على ذيول الأقمصة والأعلام ، وطرز الاردية والاكمام، وعلى العصائب ومشاد الطرر والزنانير والتكك والمناديل والمذاب والمراوح ، حتى النعال والخفاف ، وزينوا به ظاهر أبدانهم فكتبوه بالحناء على الجبين والخد والاقدام والراح ، منقوشا أو مطرزا أو مكتوبا أو منسوجا ... (تاريخ توجهت رأيت الشعر منقوشا أو مطرزا أو مكتوبا أو منسوجا ... (تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٢ ــ ٦٠) .

الألفاظ وسهلت دون اسفاف ، وتأنق الكتاب والشعراء فى صوغها والبعد بها عن كل مهجور ، وغزت بعض الكلمات الفارسية ألسنة الكتاب والشعراء فاستخدموها فى العديد من أغراضهم ، وظهرت أوزان جديدة لم تكن مألوفة من قبل فى الشعر العربى : كالمقتضب والمضارع والمتدارك والممتد ، فهذا شاعر ينظم نفثاته فى وزن من هذه الأوزان وهو الممتد فيناجى هواه ويقول :

قد شجانى حبيبى | واعترانى ادكار
ليته اذ شجانى | ما شجتنى الديار

ويترنم مسلم بن الوليد بهذا الوزن الجديد حين يقول :

يأيها المعمود | قد شفك الصدود
فأنت مستهام | حالفك السهود

وهى قصيدة طويلة يرجع اليها فى ديوانه .

وجددوا فى القافية : فاستحدثوا النوعين المعروفين باسم المزدوج والمسمط ، ويتألف الأول من شطرين على قافية ثم من شطرين آخرين وهكذا ، ويتألف الثانى من بيت مصرع ، تليه أربعة اقسام أخرى على غير قافيته ، بل ذهب بعض المؤرخين (١) الى أن المواليا ــ وهى من فنون الشعر الشعبى ــ بدأت فى هذا العصر

---

(١) من مؤرخى الادب العربى من يرى هذا الرأى كالدكتور شوقى ضيف فى كتابه الفن ومذاهبه فى الشعر العربى .

الذى اشتهر بالتجديد والابتداع والخلق ، وحملوا على الأساليب القديمة فى الشعر ، ونددوا بوصف الطلول والدمن ، ودعوا الى التحرر من القيود والتقاليد .

— ٥ —

هذه هى ملامح العصر الذى مهد لظهور محمد بن عبد الملك الزيات أديبا فكاتبا فشاعرا فوزيرا ، والذى أظله بظله حتى شب عن الطوق ، واتصل بالحياة من حوله ، فنهل من مواردها ، وارتوى من معينها ، وعاش فى غمارها ، يتنقل كالطائر الغرد من فن الى فن ، ويمضى من دوحة الى دوحة ، ويدور حول الأزهار المؤتلقة كالفراشة الطروب ، ترشف من كل رحيق معسول ، وترف بجناحيها بين مختلف الخمائل اليانعة ، وتهفو الى كل زهرة ناضرة !.

لقد بدأ شبابه يتفتح فى عصر الرشيد ، فنعم بهذا العصر الذهبى عن ادراك ووعى ، وراح ذهنه الذكى ، وعقله المتوقد يكشفان له عن مستقبله الزاهر فى هذه الدنيا العريضة فى بلاط الخلفاء ، فأخذ يتطلع الى المجد ، ويندفع اليه فى حماس قوى — كأنما ينطق من اهابه — وجاس خلال بغداد وهى تعج بكل غريب وتموج بالعلماء والفقهاء والفلاسفة والكتاب والشعراء والخلعاء والماجنين ، ثم وهى تضطرب بكل هذه الثقافات التى تفجرت فوق أرضها ، لينساب منها فيض من الثقافات الجديدة ، والأفكار المولدة ، والاتجاهات الحديثة ، فى كل نواحى المعرفة ، واستطاع

ابن الزيات بثراء أبيه وجاهه وماله ، أن يكشف الستار عن كل مفاتن بغداد، وأن يزيح النقاب عن وجهيها الجاد والعابث ،فأخذ من نعيم الحياة بنصيب ، ومن جدها بنصيب ، حتى اذا استوفى حظه من كليهما بدأت تواتيه الشهرة فيما تخطه يراعته ، أو يجرى به لسانه من قريض ، واذا هو يحلق مع كبار الشعراء والكتاب فى مسارى خيالاتهم ،ومطارح أهوائهم ،وآفاق تفكيرهم ، ثم يزاحمهم بمنكب عريض ضخم فى دنيا خواطرهم ، كما زاحم السياسيين فى مناصب الحكم ، فاذا به يزحمهم على منصب الوزارة ، ويتربع على عرشها طوال حكم المعتصم والواثق وأوائل حكم المتوكل ، مما لم يسبقه الى مثله كاتب أو وزير .. حتى كانت نهايته المحزنة!!

الفصل الثانى
مولده ونشأته

كان من الطبيعى أن تتأثر نشأة ابن الزيات بروح ذلك العصر الذى أبنا ملامحه ، فتنعكس على حياته ، وتلمح فيها انطباعات عصره قوية واضحة . فلو أن الأمور سارت فى مجراها الطبيعى دون أن يتأثر ابن الزيات بما كان عليه ذلك العصر ، أو لو أنه ظهر فى عصر آخر لاتسوده هذه الملامح القوية التى طبعت العصر العباسى بطابعها لما خلدته كتب التاريخ أديبا ، فشاعرا ، فوزيرا ، ولنهج منهج آبائه وأجداده فى مزاولة التجارة ، ولضاع فى زحمة الحياة كما ضاع كثير من التجار فى عصره ، مكتفيا بالاشراف على تجارة أبيه فى الكرخ ، أو بجلب الزيت من مواضعه ليصرفه فى بغداد على تجارها ، كما كان يفعل ابوه عبد الملك وجده أبان .

ولكن ماذا حدث ؟ لقد رأيناه يدافع أباه مدافعة شديدة حين أراده على ان يسلك مسلك آبائه وأجداده فى احتراف التجارة ، وأن يتفرغ لها كما تفرغوا ، فلا يشغله عنها شاغل من الجرى وراء الكتاب والأدباء والعلماء ، أو يصرفه عنها صارف من شغف بالشعر والأدب . وقف محمد بن عبد الملك الزيات صلبا عنيدا

آمام والده حين أنكر عليه تردده على أرباب الكتابة فى بلاط المأمون فمالانت قناته ،ولا ضعفت عزيمته ،ولا استجاب لرجاء أبيه ،وذلك لأن تيار العصر كان جارفا ، فاكتسح أمامه هذه النصائح التى أسداها اليه أبوه ، وبغض اليه حرفة التجارة ، وحبب اليه احتراف الأدب والكتابة والشعر ، استجابة لنداء عصره .

ويروى لنا صاحب الأغانى (١) فيما يزويه ماجرى بين ابن الزيات وابيه من حوار فى هذا الشأن وكيف قامت الحجة لابن الزيات على أبيه ، فتركه وشأنه ، يشق طريقه فى عالم الكتابة والأدب ، فيقول : « وكان أبوه ــ يقصد محمد بن عبد الملك الزيات ــ تاجرا من تجار الكرخ المياسير ، فكان يحثه على التجارة وملازمتها ، فيأبى الا الكتابة وطلبها ، وقصد المعالى ، حتى بلغ منها أن وزر ثلاث دفعات ــ وهو أول من تولى ذلك ــ قال حدثنى عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات ، قال : كان جدى موسرا من تجار الكرخ ، وكان يريد من أبى أن يتعلق بالتجارة ، ويتشاغل بها ، فيمتنع من ذلك ، ويلزم الأدب وطلبه ، ويخاطب الكتاب ، ويلازم الدواوين ، فقال له ذات يوم : والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك ، وليضرنك ، لأنك تدع عاجل المنفعة وما أنت فيه مكفى ، ولك ولأبيك فيه مال وجاه ، وتطلب الآجل الذى لا تدرى كيف تكون فيه . فقال : والله لتعلمن أينا ينتفع بما هو فيه ، أأنا أم أنت ؟.

---

(١) الاغانى : ج ــ ٢٠ ــ ٤٦ طبعة الساسى .

ثم شخص الى الحسن بن سهل بفم الصلح (١) ، فامتدحه بقصيدته التى أولهـا :

كأنهـا حين تنئى خطـوها ... أخنس موشى الشوى يرعى القلل

فأعطاه الحسن عشرة آلاف درهم ، فعاد الى أبيه ، فقال له أبوه: لا ألومك بعدها على ما أنت فيه » .

ولم يكتف ابن الزيات بهذه الآلاف بل تطلع الى ماهو أبقى من المال وأخلد ، فيحدثنا ميمون بن هارون :(٢) أن ابن الزيات لما مدح الحسن بن سهل ووصـله بعشرة آلاف درهم طلب أن ينشده قصيدته التى يقول فيها :

لم امتدحك رجاء المال أطلبه ... لكن لتلبسنى التحجيل والغررا
وليس ذلك الا أننى رجـل ... لا أقرب الورد حتى أعرف الصدرا

بهذا الاستهلال البارع بدأ محمد بن عبد الملك الزيات حياته الأدبية، بدأها بداية موفقة ، استطاع أن ينتزع بها من أبيه موافقته بل استطاع أن ينتزع بها اعجابه ، فأعفاه من شئون تجارته ، وبعد به عن ميدانها ليتفرغ لأدبه ، رغم ماكانت تدره التجارة فى ذلك العصر من أرباح تفوق الحصر ، وتكفل لصاحبها رغد العيش ونعيم

---

(١) وردت هذه القصيدة فى ديوان ابن الزيات فى مدح الفضل بن سهل وتبعه فى ذلك صاحب كتاب أمراء البيان ج ١ .

(٢) الاغانى ج ٢٠ .

الحياة . وهكذا انتصر ابن الزيات فى هذه المعركة ، لأن روح العصر كانت تشده الى هذا الاتجاه ، ولأن المكانة المرموقة التى كان ينعم بها الأدباء والشعراء والعلماء فى بلاط الخلفاء قد بهرت أبصاره ، فخاض غمار هذه الحياة الأدبية ، واقتحم دروبها ، وأخذ يصعد درجات المجد الأدبى بعيدا عن حرفة الآباء والأجداد .

وابن الزيات نشأ فى بيت واسع الثراء ، عريض الجاه ، فقد أجمعت المصادر على أن أباه كان من وجوه تجار الكرخ ببغداد ، ومن مياسيرهم ، وانه كان يتولى تزويد بلاط المأمون بما يلزمه من الفساطيط والجمازات ، وبما تحتاجه مطابخ قصره من أشياء — فهو بلغة عصرنا كان متعهد قصور الخلافة يمدها بكل ما يلزمها — وناهيك بما كان يلزم قصور الخلفاء فى ذلك العهد ، فكان عبد الملك لهذا كله مرموقا بين تجار بغداد ، معدودا من سراتهم .

وقد ولد محمد فى قصر أبيه بالكرخ ، وهو كرخ بغداد الذى أمر المنصور بانشائه ، لتنتقل اليه كل أنواع التجارة ، فنما على طول الزمن ، حتى أصبح مركز التجارة فى بغداد ، وموطن كبار التجار ، ولانشاء هذا الكرخ قصة طريفة ، أوردها ياقوت فى معجمه حيث يقول : « لما ابتنى المنصور مدينة بغداد أمر أن تجعل الأسواق فى طاقات المدينة ، ازاء كل باب سوق ، فلم يزل على ذلك مدة حتى قدم عليه بطريق من بطارقة الروم رسولا من عند الملك ،

فأمر المنصور الربيع أن يطوف به المدينة حتى ينظر اليها ، ويتأملها ويرى سورها وأبوابها ، وما حولها من العمارة ، ويصعده السور حتى يمشي من أوله الى آخره ، ويريه قباب الأبواب والطاقات وجميع ذلك . ففعل الربيع ما أمره به ، فلما رجع الى المنصور قال له : كيف رأيت مدينتي ؟ قال : رأيت بناء حسنا ومدينة حصينة الا أن أعداءك فيها معك ، قال له : من هم ؟ قال : السوقة ، يوافي الجاسوس من جميع الأطراف ، فيدخل الجاسوس بعلة التجارة والتجار هم برد الآفاق ، فيتجسس الأخبار ، ويعرف ما يريد ، وينصرف من غير أن يعلم به أحد ، فسكت المنصور . فلما انصرف البطريق أمر باخراج السوقة من المدينة ، وتقدم الى ابراهيم ابن حبيش الكوفى وخراش بن المسيب اليمانى بذلك ، وأمرهما أن يبينا مابين الصراة ونهر عيسى سوقا ، وأن يجعلاها صفوفا ، ورتب كل صف فى موضعه ، وقال : اجعلا سوق القصابين فى آخر الأسواق ، فانهم سفهاء ، وفى أيديهم الحديد القاطع ، ثم أمر بأن يبنى لهم مسجد يجتمعون فيه يوم الجمعة ولا يدخلون المدينة ، ثم اتسعوا بعد ذلك فى البناء والأسواق » .

فى هذا الكرخ ولد ابن الزيات ، وفى قصر والده تفتحت عيناه على الحياة لأول مرة ، واستهلها صارخا كما يستهلها كل مولود ، فتلاشت صرخات الوليد بين معالم السرور بمقدمه ، وذابت بين ضحكات الفرح والابتهاج باستقباله ، وأمضى محمد فى قصر أبيه طفولة سعيدة : طفولة مدللة فى أحضان الثراء

والنعمة ، محـــوطة بكل أنواع الرعاية والعطف ، تجـد كل ما تشتهى ، وفوق ما تشتهى ؛ لأنها طفولة فوق مستوى الطفولات على عهده ثراء وجاها وحسبا .

ونحن ـ مع اغفال المؤرخين الحديث عن طفولته ـ نرجح أن عبد الملك كان يرعى ابنه فى هذه الفترة رعاية الوالد الحـريص على مصلحة ولده ، وأن عينه لم تغفل عن تأديبه وتهذيبه ؛ ليؤهله لمهنة التجارة ، وأن ثراءه الواسع العريض مكنه من هذه الرعاية، فاستقدم له المؤدبين والمعلمين ، يعلمونه الخط والقراءة والحساب فى البيت ، على سنة الخلفاء والكبراء فى تربية أولادهم ، دون أن يجشم ابنه مئونة التردد على هؤلاء المعـلمين فى منـازلهم أو مساجدهم ، حتى اذا شب عن الطوق ، وأتقن القراءة والكتابة ، انطلق على سجيته يرتاد دواوين الحكومة ، ويلازم كبار الكتاب، ويشدو بالشعر ، وترك ما كان أبوه يؤهله له من ممارسة التجارة، وحذق فنونها .

ولقد أغفلت مراجع التاريخ السنة التى ولد فيهـا محمـد ابن عبد الملك الزيات . ولكننا نرجح أنه ولد فى سنة ١٧٣ هجرية (٧٨٩) ميلادية . أى بعد خلافة الرشيد بثلاث سنين ، ووجـه الترجيح أن ابن الزيات تولى الوزارة لأول مرة للخليفة المعتصم سنة ٢٢٠ هجرية ، وكانت سنه اذ ذاك سبعا وأربعين سـنة على ما ورد فى بعض المصادر ، فيكون مولده ـ ان صح هذا القول ـ

فى عام ١٧٣ هجرية ، وعاش حتى نكب فى خلافة المتوكل عام ٢٣٣ هجرية (٨٤٧) ميلادية . فيكون قد قطع مرحلة الحياة فى ستين عاما هجريا ، أو ثمانية وخمسين عاما بالحساب الميلادى .

أما اسمه بالكامل فهو محمد بن عبد الملك بن أبان بن أبى حمزة الزيات ، ويكنى أبا جعفر ، وغلب عليه لقب الزيات لأن جده أبان كان يتجر فى الزيت ، فيجلبه من مواضعه الى عاصمة الخلافة ، فظل هذا اللقب ملازما له ولذريته من بعده ، كما لازم أباه وجده . وكان جده أبان هذا من أهل جبل ، من قرية بها يقال لها (١) دسكرة من النهروان الأسفل ، وقد استطاع أبان أن يؤسس تجارة كبيرة فى الزيت وغيره من السلع ، وأن يهجر قريته دسكرة الى بغداد ، ليكون قريبا من مركز تصريف تجارته وورث عنه شئون هذه التجارة ابنه عبد الملك ، الذى اتسعت أعماله التجارية فى الكرخ ، وأصبحت له ــ كما سبق ــ علاقات تجارية بقصور الخلفاء والأمراء . وقد كان يسعده أن يتولى شئون هذه التجارة من بعده ولده محمد ، لولا أن مناصب القصور قد جذبت اليها محمدا ببريقها ولألائها ، فآثر أن يتحصن لها بالعلم ، ويتسلح بالأدب ، ويبرأ من التجارة . ولذلك نرى محمدا ــ وهو فى شرخ الشباب ــ يشغف بمصاحبة العلماء ، وملابسة أرباب الكتابة فى أعظم دواوين الدولة فى عهد المأمون ؛

---

(١) وفيات الاعيان ج ٤ . الاغانى ج : ٢٠ . ومعجم الشعراء للمرزبانى .

كعمرو بن مسعدة ، وأحمد بن يوسف ، وسهل بن هارون ، والفتح بن خاقان ، وطاهر بن الحسين ، والجاحظ ، وأضرابهم . وأصبح الديوان مدرسته التى يختلف اليها بعد أن تعلم القراءة والكتابة . وعرف فى هذا الديوان ــ كما يقول صاحب كتاب امراء البيان ــ « معاملات الحكومة ، وأصولها فى سياسة الملك ، وكتب كتبا ، وشاهد الكتاب يكتبون ، وأرهف حسه ، وهذب نفسه ، منذ ألقى فى روعه أن يكون ذات يوم صاحب شأن فى الدولة » . وكما صاحب كتاب عصره وأخذ عنهم صاحب أيضا علماءه فى اللغة والأدب والرواية ، كأبى عبيدة ، والأصمعى ، وأبى زيد الأنصارى ، والكسائى ، والفراء ، والخليل ، وقطرب ، حتى أصبح حجة فى اللغة يحتج برأيه ، ويأخذ به علماء اللغة « ذكر ميمون (١) ابن هارون الكاتب : أن أبا عثمان المازنى لما قدم بغداد أيام المعتصم ، كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه فى علم النحو ، فاذا اختلفوا فيما يقع فيه شك ، يقول لهم المازنى : ابعثوا الى هذا الفتى الكاتب ــ يعنى محمد بن عبد الملك ــ اسألوه ، واعرفوا جوابه ، فيفعلون ، فيصدر الجواب من قبله بالصواب الذى يرتضيه المازنى ، ويقفهم عليه » .

ومثل ابن الزيات فى ذكائه الحاد ، وحسه المرهف ، لا يغيب عن خاطره ما وصل اليه الكتاب من رفيع المناصب ، وما ألقت به اليهم الكتابة من أزمة الأمور ، ومقاليد الحكم . فلقد « وصل

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى . وفيات الاعيان ج : ٤

الكتابة (١) الى أرفع المنازل بعد الخلافة ، وألقيت اليهم الأعنة فى سياسة الدولة ، وأحس الخلفاء بشدة الحاجة اليهم ، فاعتصموا بهم فى النوازل ، وتركوهم يتصرفون عنهم فى الوعد والوعيد ، والنقض والابرام ، ونظر الناس الى هذه المكانة نظرة التقديس والاجلال ، فصاروا يسمعون من الكتاب من يقول :

ولى فقـــر تضحى الملوك فقـــيرة
اليهـــا لدى أحداثهـــا حين تطـرق

ولعظم مهمة الكتاب عنوا بالتبحر فى الأدب ، والتفقه فى كل ما يتصل به من علم ، حتى يكونوا أكفاء لما ينـــدبون له ، وحتى يقعوا من الخلفاء والملوك الموقع المرضى عنه »

وابن الزيات رجل طموح ، لم تلهه مكاسب التجارة ، وعاجل أرباحها عن بريق المناصب ، فعمل على أن ينشىء نفســه هـــذه النشأة التى تؤهله لأن يكون كاتبا من الكتاب الذين تزدان بهم مناصب الحكم ، وتحـــرص عليهم الخـــلافة . ومع تردده على الدواوين منذ أيام المأمون ، وملازمته لكبار الـــكتاب ، يأخـــذ عنهم ، ويكتب لهم ما يريدون ، فقد استطاع أن يظفـــر فى قصر الخلافة أيام المعتصم باحدى وظائف القصر ، وان كانت لا تمت الى الكتابة بسبب ، وانما اعتبرها محمـــد بن الزيات ســـلما الى ما يبغيـــه من أرقى المنـــاصب . يؤيد هذا ما أورده المرزبانى فى

(١) تاريخ الأدب العربى ج ٣ .

معجم الشعراء ، اذ يقــول : « ان محمــدا لم يكن له حظ فى الكتابة (كذا) وكان له فى أيام المعتصم تفقد الدار ، والاشراف على المطبخ » ومثله ما ذكره الطبرى (١) فى سياق قصـــة تولى محمد الوزارة ، مما سيرد فى موضعه ، وهو قوله « كان محمد ابن عبد الملك الزيات يتولى للمعتصم ما كان أبوه يتولاه للمأمون من عمل المشمش والفساطيط وآلة الجمازات ، ويكتب على ذلك: مما جرى على يدى محمد بن عبد الملك . وكان يلبس اذا حضر الدار دراعة سوداء ، وسيفا بحمائل ، فقال له الفضل بن مروان : انما أنت تاجر . فمالك وللسواد والسيف . فترك محمد ذلك »

ويبدو من سياق كلام الطبرى أن ابن الزيات كانت تغلب عليه فى بلاط المعتصم صفة التاجر الذى يورد الى القصر ما يلزمه من الفساطيط والمشمش والجمازات ، ولذلك استنكر عليه الفضـــل ابن مروان أن يلبس الدراعة ، وأن يتمنطق بسيف ذى حمائل ، بينما يدل كلام المرزبانى على أنه كان يشغل فى أيام المعتصم احدى وظائف البلاط ، وهى تفقد الدار والاشراف على المطبخ (٢) . وأيا كان عمله فى بلاط المعتصم فالذى نحرص على اثباته دون شك ، هو أن ابن الزيات قد وصل الى قصر الخليفة ، وأنه شغل فيــه

---

(١) تاريخ الطبرى ج ١٠ .

(٢) يقول صاحب امراء البيان : ان ابن الزيات كان يتولى فى بدء أمره قهـرمة الدار . والقهرمان كلمة فارسية معناها المسيطر الحفيظ على ما تحت يده ، ويشرف على مطبخ الخليفة .

مركزا من المراكز المرموقة ، وأنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من آماله العريضة . وماهى الا أيام معدودة حتى كان ابن الزيات من جملة الكتاب فى بلاط الخليفة ، يؤيد ذلك ما أورده البغدادى فى خزانة (١) الأدب من أنه « كان فى أول أمره ـ قبل توليه الوزارة ـ من جملة الكتاب فى بلاط المعتصم »

وما ذكره ابن خلكان فى قصة تولية الوزارة بعد أحمد ابن عمار من أنه كان من جملة الكتاب .

والذى نرجحه ـ للتوفيق بين هذه الآراء المختلفة ـ أن ابن الزيات كان فى شبابه قريبا من قصر الخلافة،يشارك كبار الكتاب فى أعمال الدواوين ، ويشرف فى نفس الوقت على بعض وظائف القصر الداخلية ، وهذا الاشراف هو الذى مكنه من مصاحبة هؤلاء الكتاب والاختلاط بهم ، فأخذ يعد نفسه فى هذه الفترة لمهمة أسمى ، ومنزلة أكبر ، ودفعته حياة القصور فى مجراها الذى خطته يد القدر له ، فشق طريقه فيها ، تؤازره نعمة موفورة متوارثة ، ويؤيده حسب ركين مكين ، ويزكيه ذهن متوقد ،وحس مرهف ، وذكاء حاد ، واستطاع بكل هذه الأسلحة أن ينهل من موارد المعرفة التى فاضت بها بغداد فى عصره ، وأن يستمع الى كبار العلماء فى مختلف فنون الثقافة ، فيشبع نهمه الى العلم ، ويروى ظمأه الى كل جديد من المعرفة ، وأصبح حجة فى اللغة والأدب ، يركن الى رأيه أمثال المازنى كما تقدم ، ويعتد برأيه فى

---

(١) ج ١ ٠

مجالات الأدب ، وبات كاتبا مرموقا بين كتاب الدواوين ، وأخذ في هذه الحقبة يعالج قرض الشعر ، ويشدو به في كثير من المناسبات ، ودار مع كبار شعراء عصره في الفلك الذي يدورون فيه ، وتناول كل الأغراض التي تناولوها ، وغنى كما يتغنون بالخمر والشراب ، والقصيف والطرب ، والهجر والوصال ،والحب والحنين ، والرضا والعتاب ، والمدح والهجاء ، لا عن محاكاة وتقليد ، بل عن ممارسة حقيقية لكل هذه العواطف ، لأنه ذاب في مجتمعه ، وعاش فيه بكل أحاسيسه ، وأقبل على دنياه اقبال المفتون بكل ما فيها من جمال وسحر ، وثقافة وعلم ، تستقبله مجالس اللهو والشراب ، كما تفتح ذراعيها له مجالس الثقافة والجد .

وديوان ابن الزيات مرآة صادقة لهذه الفترة التي عاشها في بغداد قبل أن يلي الوزارة ، فنلمس فيه صورا من حياته المختلفة ، وتشهد ألوانا من هذه العواطف التي كانت تزخر بها نفسه ، فيفيض بها لسانه شعرا يسجل فيه هذه الخطرات . فشعره في الغزل والنسيب يدل دلالة قوية على مشاركته لعصره ، واستمتاعه بكل مباهجه ، وشدة حبه (١) للمرأة ، وهيامه بها ، بل خضع لمؤثرات العصر حتى في الغزل بالمذكر ، وكذلك شعره في وصف

---

(١) يبدو هذا واضحا من قوله :

ان الغواني وكل شيء يقال فاقبله في الغواني
ينلن حاجاتهن عندي بلمحة الاعين الحسان

الخمر ومجالس الشراب يكاد يبلغ من الجودة والصدق منزلة شعر كبار الشعراء فى عصره . ونحن نورد فيما يلى أمثلة من شعره تدل على أنه لم يكن يحاكى فيما بقول غيره أو يقلده ،وانما هو يصور حياته أدق تصوير وأبلغه .

فمن غزله :

اذا الناس كانوا فى الأحاديث والمنى
خلوت بنفسى فيك من بينهم وحدى
أحيد بنفسى عنك عمدا وفى الحشا
اليك عيون ما برحن عن القصد
فيا من بكفيه حياتى وميتتى
ومن ليس لى منه ــ وان مت ــ من بد
أرحنى من نفسى بموت معجل
فديتك أو نائى الفؤاد من الجهد

*

تجلدت فى حبى وما بى قوة
ولى زفرات شاهدات على عشقى

والديوان مملوء بكثير من هذا الغزل ، بعضه عف ، وبعضه تكشفت عنه الحجب والأستار فبدا غزلا عاريا مكشوفا .

ومن غزله الذى بلغ من الجودة حدا يضع ابن الزيات فى مصاف كبار شعراء الغزل قوله :

ولو أن ما ألقى من الوجـد سـاعة

بأجبـال رضوى هدمتهـا صخورها

ولو أن ما ألقى من الوجـد سباعة

بركنى ثبـير ما أقام ثبـيرها

ولو أننى أدعى لدى المـوت باسـمها

لعاد لنفسى ــ باسم ربى ــ نشورها

وانى لآتى الشيء من غـير علمهــا

فيخبــرها عنى بذاك ضـميرها

وقد زعمت أنى سـمحت لغـيرها

بوصـل ، ولا والبدن تدمى نحورها

وهذا كله دليل قاطع على أن ابن الزيات قد استمتع بشبابه، وبلغ به ما بلغه شباب عصره من عكوف على اللذات ، واتهـاز للمتع ، وأنه ترك لقلبه العنان يتعلق بكل حسناء ، ويهفو الى كل ذات سوار تعترض طريقه ، وأنه كان لا يدارى هواه ، ولا يقتصد فى نزواته . ذكر الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد أن ابن الزيات كان يعشق جارية من جوارى القيان ، فبيعت من رجل من أهل خراسان ، فأخرجها ، فذهل عقل ابن الزيات حتى غشى عليه ، ولما أفاق أنشأ يقول :

يا طول ساعات ليل العاشـق الدنف

وطـول رعيتـه للنجم فى السـدف

ماذا توارى ثيـــابى من أخى حرق
كأنمـا الجسم منـــه دقـة الألف

ما قال يا أسفا يعقـوب من كمـــد
الا لطـول الذى لاقى من الأسـف

من سره أن يرى ميت الهـوى دنفـا
فليســــــتدل على الزيات وليقف

ولم يفت ابن الزيات أن يسهم فى هذه البدعة الجديدة ،التى طغت على أكثر شعراء عصره ، فراح يتغنى بالغزل فى المـذكر ، ويشبب بالغلمان .

أما خمرياته التى وردت فى شعره فتدل على مشـاركة ابن الزيات فى مجالس الشراب فى عصره ، وقد بلغ أحيانا من دقـة الوصف مبلغ النواسى الذى أدركه وتأثر به فى هذا النوع من الشعر ، فأنت ترى شبها قويا بين شعر ابى نواس (١) وشعر ابن الزيات فى وصف الخمر ، والتغنى بمجالسها ، فاذا قال النواسى :

والراح طيبـة وليس تمامهـا   الا بطيب خلائق الجـلاس
واذا جلست الى المدام وشربها   فاجعل حديثك كله فى الكاس

قال ابن الزيات فى مثل هذا المعنى :

سقيا لمجلسنا الذى جمعت به   طرف الحديث وطاعة الجلاس

(١) توفى أبو نواس عام ١٩٨ هجرية وابن الزيات فى الخامسة والعشرين .

واذا قال النواس :

كرخيـــة قد عتقت حقبـــة ... حتى مضى أكثـر أجزائهـــا
فلم يـــكد يدرك خمـــارها ... منها ســوى آخر حوبائهـــا
دارت فأحيت غـير مـذمومة ... نفـوس حراها وأنضـــائها
والخمر قد يشربها معشـــر ... ليسوا اذا عدوا بأكفـــائها

قال ابن الزيات فيما يشبهه :

وصـــهباء كرخيـــة عتقت ... فطال بهـــا فى الدنان الطيـل
فلم يبق منهـــا ســوى لونها ... ونكهـــة ريح بهـــا لم تزل
كأن خيـــالا لدى كأسها ... يدق عن الطـرف مالم يجـل
ترى بالتـــوهم لا بالعيـــا ... ن وتشرب بالقول لا بالعمـل
كفـــانى من ذوقهـــا شـــمها ... فرحت أجـر ثيـــاب الثمـل

وابن الزيات فى التغنى بالخمر والشراب ، لا يقنع بالقول ، والتأثر بشعراء عصره ، وانما هو يعيش هذه الحياة العابثة حقا ، ويستمتع بما فى بغداد من مباهج العيش ، ويستوفى نصيبه من متع الحياة ، الى جوار حياته العقلية الخصبة فى مجالس الكتاب والعلماء ورجال الأدب واللغة ..

ونستطيع كلما أوغلنا فى تتبع شعر ابن الزيات فى ديوانه أن نقف على دقائق حياته فى هذه الحقبة ، وأن نلم بشىء من أخلاقه وطبائعه ، فلم يكن ابن الزيات كبقية الكتاب حين كان يتردد على دواوين الخلفاء ، بل كان يحب أن يمتاز عليهم ، وينفرد من دونهم

بملبسه ومركبه ، فكان يلبس ـ كما قال الطبرى ـ دراعة سوداء، وسيفا له حمائل ، وهو يتولى أعمال المطبخ فى قصر الخلافة الى جانب عمله فى الكتابة ، حتى لفت اليه انظار الوزير الفضل ابن مروان ، فقال له ـ كما ذكرنا ـ انما أنت تاجر ، فمالك وللسواد والسيف ؟ وكان يركب فى ذهابه الى القصر وعودته منه برذونا أشهب ، يروى صاحب الأغانى (١) أنه لم ير مثله فراهة وحسنا ، فسعى به محمد بن خالد الى المعتصم ، ووصف له فراهته ، فبعث المعتصم اليه ، وأخذه منه ، ولم يستطع ابن الزيات الا الاستسلام لمشيئة المعتصم ، والنزول عن برذونه ، ولكنه لم يستطع أن يمنع شيطان شعره من البكاء على هذا البرذون ، فأتبعه بتلك القصيدة التى يقول فيها :

كيف العزاء وقد مضى لسبيله
عنا فودعنا الأحم الأشهب
دب الوشاة فأبعدوك وربما
بعد الفتى وهو الأحب الأقرب

وشىء آخر نراه فى شعر ابن الزيات يدل على ما كان يتمتع به من روح (٢) ساخرة ، وحب للدعابة والنيل من الأصدقاء ،

---

(١) الأغانى : ج ٢٠ .

(٢) ذهب الى أحد المقينين فوجد على بابه برذونا وعلم انه باع القينة واشتراه بثمنها فقال :

قينة كانت تغنى ... مسخت برذون أدهم
هجت بالسباباط يوما ... فاذا القينة تلجم

حتى عرف فى هذه الفترة بخفة الروح بين أصدقائه ، عكس ما عرف عنه أيام توليه الوزارة من صرامة وشدة ، فهو فى شعره يداعب كثيرا من أصدقائه،ويغمزهم غمزا يثير الضحك والأعجاب، فتراه يداعب أنف صديقه عيسى بن زينب ، ويصفه وصفا ساخرا يذكرنا بأسلوب ابن الرومى فى هجائه ، وكان أنف هذا الصديق يملأ وجهه ، ويشغل حيزا كبيرا من مساحته ، فلم يسلم من مداعبة ابن الزيات له ، وتلمس فى هذه المداعبة خيال الشاعر الخصيب الذى أضفى على شعره ألوانا من السخرية القاتلة التى تدفع الى الضحك من عيسى بن زينب ، ومن أنف عيسى بن زينب !! اسمع اليه حين يقول :

يا أنف عيسى جزاك الله صالحة
وزادك الله اشراقا ومتسعا

حصن حصين وعز لو تناوله
كسرى الملوك أنو شروان لامتنعا

تركت عيسى فما عندى مخاطبة
له وخاطبت أنفا طال وارتفعا

رأيت أنفا ولم أعلم بصاحبه
فقلت : من صاحب الأنف الذى طلعا

قالوا فتى غاب فيه ، قلت واعجبى
ما ان رأى مثل ذا راء ولا سمعا

يا ويلـــكم أخرجوه ، قال ناطقــهم
هيهـات ما ان نرى فى نيــله طمعـا

ومن هذه المداعبات ما قاله فى على بن عثمان :

ماجبـــلا طيىء بأمنع من زاد على زميـــل صقـلاب
ذاك امـرؤ ان أردت كسرته جادت لنا عينـه بتسـكاب

وقد يقسو أحيانا على بعض من كان يصادقهم ، ويمحضهم اخلاصه ووده ، فينقلب عتابه لهم الى هجاء مقذع كقوله :

لقـــد أخطـــأت فى حبى وفى تكـــرمة الـــكلب
فمـــا أعجب من فعـــلى وما أعظـــــم من ذنبى
دعانى الجهـــل أن أقرر ت للخنــــــزير بالحب

ومع ذلك فقد كان وفيا لأصدقائه ، حفيا بهم ، وتلمس ذلك فى قوله لبعض أصدقائه حين علم بعلته :

أعزز على بأن تكون عليــلا أو أن يكون بك السقام نزيلا
فوددت أنى مالك لسـلامتى فأعيركنهـا بكـرة وأصـيلا
فتكون تسعى سالما بسلامتى وأكون مما قـد عراك بديلا
وأنا أخ لك أشتكى ماتشتكى وكذا الخليل اذا أجل خليــلا

على أنه يعود الى نفسه أحيانا وينحى عليهـا باللائمة لأنهـا تستمسك بمودة الأصدقاء ، وتتعلق بأسبابهم على حين لا يرى منهم الا الهجر وعدم الوفاء ، وترى ذلك واضحا فى عتابه لأحـد أصدقائه اذ يقول :

يا قلب ويحك لم ترد   بمودة من لا يريدك
يزهو ويغرق فى القلا   واذا مرضت فلا يعودك
حتى متى ، والى متى   غى الفؤاد له يقودك
أمسى لغيرك جوده   وله ـ وما يهواك ـ جودك

وتحس المرارة فى قوله :

ما أعجب الشىء ترجوه فتحرمه
قد كنت أحسب أنى قد ملأت يدى
مالى اذا غبت لم أذكر بصالحة
وان مرضت فطال السقم لم أعد

وكل هذا راجع الى ما تفيض به نفس الشاعر من احساس مرهف ، وشعور رقيق ، والى ما يعمر قلبه من وفاء وحب . وانك لتراه يذيب هذا القلب فى زفراته التى أطلقها حين اخترم الموت جاريته أم عمر ، وخلفت له ابنها صغيرا لم يتجاوز الحلم ،فيبكيها بهذا الشعر الدامى ... :

ألا (١) من رأى الطفل المفارق أمه
بعيد الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنها غير أمه
يبيتان تحت الليل ينتجيان

---

(١)وردت القصيدة كاملة بالديوان .

وبات وحيدا فى الفراش تجيبه
بلابل قلب دائم الخفقان
فلا تلحيانى ان بكيت فانما
أداوى بهذا الدمع ما تريان

كل هذه النفثات الحزينة الصادقة تدل على رقة قلب الشاعر، وشدة تأثره بالنازلات، وعميق احساسه بالنوائب .

على أن هذه الرقة كان يمازجها اعتداد بالنفس، واعتزاز بالشخصية، وسمو بالكرامة، يستبين ذلك مما أسلفناه من اهتمامه بملبسه ومركبه، ومن شعره الذى يفصح عن هذه الخلال، ويكشف عن الاعتداد بالنفس، وسعة الحيلة، والحزم فى الأمور، فهو يقول :

فقد أختلس (١) الطعنة بين الرأى والوهم
وأغشى القوم بالقوم وأغشى الدهم بالدهم
وأحميهم وان غبت حموا أنفسهم باسمى

وقوله :

راجع الحزم واستفد من خصا
ل العجز يوما ان زلت القدمان
لم يسىء فى الصموت من ذكر الز
لة فى القول عند نطق اللسان

---

(١) اعتمدنا على النص الوارد فى معجم الشعراء للمرزبانى .

لا يكن حصنك التمسك بالهم

اذا خفت صولة الحدثان

واسع فى الحيلة التى تتلافا

ك وشمر تشمير غير الوانى

وقد شارك ابن الزيات بشعره فى الحياة السياسية أيام شبابه ـ فى عهد المأمون ـ واستطاع أن يصل الى أهدافه ، ويحقق أغراضه ، مستغلا فى ذلك ما كان من خلاف بين أمراء البيت العباسي . ونحن نسوق قصة هذه المشاركة ؛ لانها تكشف عن جانب من جوانب حياة ابن الزيات وخلقه ، فهو لا يريد أن يكون مال أبيه وثراؤه غنيمة باردة لأحد الأمراء العباسيين ، فتطوع بشعره ليرد المال على أبيه ، ويحفظ عليه ثروته . تقول[1] القصة : « ان المأمون لما فرغ من حروبه مع الأمين أرسل الى العراق أنه قد عهد بالخلافة من بعده الى على بن موسى العلوى، ولقبه بالرضى ، وأمر الناس بترك السواد شعار العباسيين ،ولبس الخضرة وهى شعار العلويين . وكان المأمون مازال بخراسان لم يدخل بغداد ، فعظم هذا الأمر على من ببغداد من العباسيين ووجوههم ، فخرجوا على المأمون ، وأقاموا منصور بن المهدى خليفة ، ولقبوه بالمرتضى ، فضعف عن الأمر ، وقال : انما أنا خليفة المأمون ، فتركوه ، وعدلوا الى أخيه ابراهيم بن المهدى الأسود ، ولقبوه بالمبارك ، وكان يقال له التنين لضخامته ، ويقال

---

(1) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ج ٢ : ٢ .

له ابن شكلة ، وهى أمه ، وكان أديبا فصيحا شاعرا محسنا ،رأسا فى معرفة الغناء وأنواعه ، فجهز له المأمون جيشا بقيادة حميد الطوسى ، فانهزم جيش ابراهيم ، وهرب على أثر ذلك ابراهيم ابن المهدى واختفى ، وبقى فى الاختفاء سبع سنين ، ثم ظفروا به وهو فى ازار امرأة ، فعفا عنه المأمون ، بعد أن أشار الجميع بقتله الا يحيى بن أكثم ، فانه قال للمأمون : اجعل عفوك عنه خيرا ومكرمة تذكر الى آخر الدهر ، فقبل رأى يحيى ، وأطلقه مكرما . وكان ابراهيم بن المهدى ــ أيام خلافته ــ قد اقترض من أغنياء بغداد وكبار تجارهم مالا يدبر به شئون الخلافة ، حتى تستقيم الأمور ، ومن هؤلاء الذين اقترض منهم ابراهيم من التجار ــ عبد الملك بن الزيات ، والد محمد بن عبد الملك ، اقترض منه عشرة آلاف درهم ، ثم انتهى أمر ابراهيم ، ولم يرد الى الناس ما اقترضه منهم ، ومن بينهم عبد الملك . فتولى محمد عن أبيه مطالبة ابراهيم بالدين ، واستخدم الشعر فى هذه المطالبة » .

ويروى صاحب الأغانى ــ فيما يسوقه من اخبار محمد ابن عبد الملك الزيات ــ هذه القصة بشىء من التفصيل ، ويذكر الشعر الذى قاله ابن الزيات فى هذه المناسبة ، فيقول(١) أبو الفرج: « حدثنى عبد الله بن محمد بن عبد الملك الزيات أن ابراهيم

---

(١) الأغانى ج : ٢٠ .

ابن المهدى لما وثب على الخلافة اقترض من مياسير التجـار مالا، فاخــذ من جدى عبــد الملك عشرة آلاف درهم ، وقال له : أنا أردها اليك اذا جاءنى مال ، ولم يتم أمره فاستخفى ، ثم ظهـر ، ورضى عنه المأمون ، وطالبه الناس بأموالهم ، فقال : انما أخذتها للمسلمين ، وأردت قضاءها من فيئهم ، والأمر الآن الى غيرى ، فعمل أبى محمد بن عبد الملك قصيدة ، يخاطب فيها المـأمون ، ومضى بها الى ابراهيم بن المهدى ، فأقرأها اياه ، وقال : واللهلئن لم تعطنى المال الذى اقترضته من أبى لأوصلن هذه القصــيدة الى المأمون ، فخاف ابراهيم ان يقرأها المأمون ، فيتدبر ما قاله ، فيوقع به . فقال له : خذ منى بعض المال ونجم على بعضه ، ففعل أبى ذلك ، بعد أن حلفه ابراهيم بأوكد الايمان ألا يظهر القصيدة فى حياة المأمون ، فوفى له أبى ذلك ، ووفى ابراهيم بأداء المال كله » .

ثم أورد بعد ذلك صاحب الأغانى هذه القصيدة التى نكتفى منها بما يأتى :

تذكر أمير المــؤمنين قيــامه
وايمـانه فى الهـزل منـه وفى الجد
اذا هـز أعـواد المنـابر باسـته
تغنى بليـلى أو بميـة أو هنـد
ووالله ما من توبـة نزعت بـه
اليـك ولا ميـل اليـك ولا ود

وهى قصيدة طـويلة ، يرجع اليهـا فى ديوانه ، وفى كتب التاريخ والأدب .

واذا علمت أن المأمون قد تولى الخلافة عام ١٩٨ هجـرية ، وأن الأمر قد استتب له فى هذا العـام ، أدركت أن ابن الزيات كان اذ ذاك فى الخامسة والعشرين من عمره ، وكان على صـلة بالقصر وكتاب الدواوين ، فهو فى هذا الشباب البـاكر لم يكن مغمورا ولا مجهولا ، وانما كان يشارك فى الحياة الأدبية ، وفى مجالات الشعر ، وفى الأحداث السياسية ، حتى نجح بسـلاح الشعر فى استرداد مال أ يه المفقود ، وفى مجابهة أمير من أمراء البيت العباسى ، ومطالبته بحق أبيه ، والا شن عليه الحرب بشعره، وأعاد الى ذاكرة المأمون ماضى عصيانه بما فى القصيدة من غمز صراح لا يخفى على المأمون .

من أجل هذا لجـأ ابراهيم الى مروءة محمـد بن عبد الملك الزيات ، فى أن ينجم عليه المال ، ويأخذ جزءا منه، حيث لا يستطيع أن يوفى به ر ه ، واستجابت مروءة الشاعر الى رجاء ابراهيم . فقبل المال منجما ، وحبس الشعر عن المأمون .

وهذه القصة تدل على ما كان لأدب ابن الزيات من مكانة فى ذلك العصر ، وما كان لشعره من أثر حتى فى نفـوس الأمراء ، وتدل من ناحية أخرى على وفاء محمد لأبيه ، وحرصه على ماله، ومدافعته عن مصالحه المالية والتجارية ، رغم انشـغاله بالأدب والشعر ، فلم يدع مال أبيه نهبا للأطماع ، وعرضة للضياع ، لأن

ابن الزيات لم يصل الى ما وصل اليه من مكانة الا بقوة هـذا المال ، وبجاه أبيه وثرائه ، فلا غرو أن كان حريصا على هذا المال أن تبدده مغامرات السياسيين . وبذلك طـوع ابن الزيات أداته الفنية لتسجيل خطرات شبابه ، وجعل شعره سجلا للأحداث التى مرت به فى تلك الفترة .

ولم ينس ابن الزيات فى غمار هذه الأحداث التى مرت به أن يجعل لله جانبا من حياته ، فلم تشغله نزوات الشباب ، ولا مطامع النفس وآمالها ، ولا طموحه الى ارتقاء المجد ، عن الاتجـاه الى الله ، والنزوح الى الأراضى المقدسة ؛ لأداء فريضة الحج ، فقد ذكر صاحب (١) الأغانى : « أن محمد بن عبد الملك الزيات شخص الى الحجاز فى أواخر عهد المأمون » . فلم تلهه دنياه عن آخرته ، ولم يغفل هذا الجانب الروحى يكمل به دينه ، كما تمت عليـه دنياه . وقد شخص الى الحجاز مرة أخرى أيام وزارته للحج ، وقد تحدث عن ذلك ابن المعتز فى طبقات الشعراء فقال : «حدثنى محمد بن على البصرى قال : كان بين الوزير ابن الزيات وبين أبى حكيمة مودة عجيبة ، وأنس كثير ، فقدم ابن الزيات من مكة ، فجعل الناس يحضرونه للتهنئة ، الا صديقه أبا حكيمة ، فقـال بعض الحاضرين : أين صديقك أبو حكيمة ؟ فوصلت منـه الى ابن الزيات رقعة فيها :

(١) الأغانى ج ٢٠ .

لا تنس عهـــدي ولا مودتيـــه
واشـــتق الى طلعتى ورؤيتيـــه
ان غبت عنـــكم فلم تغب كثـــرة الذ
كر ولا تغفـــلن هديتيـــه
التمر والمقل والمساويك والفلعة (1) للنعل وهى منيته
فكتب اليه ابن الزيات :

انك منى بحيث ما يطـــرف النـــا
ظـــر قربا من تحت دمعتيـــه
لا والذى زادنى وفضـــلنى
على صـــحابى بطـــول صـــحبتيه
ما خنت عهـــدا ولا نســـيتك فى
يوم دعائى ولا هديتيـــه

ثم حمل اليه ما طلب .

وقد رزق محمد بن عبد الملك الزيات كثيرا من الأولاد ،ورد ذكر بعضهم فى كتب التاريخ والأدب ، وروى بعضهم عن أبيـه بعض أشعاره وحوادثه،وأشهرهم سليمان بن محمد بن عبدالملك، وعبد الله بن محمد بن عبد الملك ، وقد قبض عليهما المتوكل يوم قبض على أبيهما ، وسلمت اليهما جثته حين مات فى التنور ، ثم هارون وعبيد الله ، وقد ورد ذكرهما فى كتـاب الأغانى يرويان

(1) الفلعة بكسر الفاء القطعة من السنـــام .

كثيرا عن أبيهما بعض أشعاره وحوادثه ، ثم ابنه عمر الذى ماتت عنه أمه وهو ابن ثمانى سنوات ، وبكاها ابن الزيات بما قدمناه من شعر فى رثائها .

بقيت بعد ذلك مسألة تستأهل التحقيق والبحث ، لأنها تتعلق بنسب ابن الزيات وأصله ، هل كان ابن الزيات عربيا خالصا لا تشوب نسبه شائبة من عجمة أو تهجين ، أم كان من هؤلاء الأعاجم الذين وصلوا الى مراتب السلطان ، وتصدروا وظائف الدولة بما كان لهم من دالة على الخلفاء ، وأثر فى اقامة دولة بنى العباس ، أم ينحدر من أصول مختلطة متشابكة تجرى فيها دماء الفرس والعرب جنبا الى جنب ، وتمتزج فيها خصائص الجنسين ؟؟

لقد روى له المرزبانى فى معجمه من الشعر ما يدل دلالة قاطعة على أنه يفخر بنسبه الأعجمى ، ويسلكه فى عداد الأعاجم ، فينسب اليه هذين البيتين :

نحن بنو الغر المحجلينا الأعجمين والمتوجينا
لنا الفروسية ما بقينا بها خلقنا وبها سمينا

ولم نعثر فى ديوان ابن الزيات ولا فى المصادر الأخرى من كتب التاريخ والأدب على هذين البيتين ، ولا على ما يشبههما من قريب أو بعيد ، ولم نجد له بيتا واحدا يفخر فيه بأرومة أعجمية فى غير ما رواه المرزبانى فى معجمه ، مما يجعلنا نتحفظ أشد

التحفظ فى قبول ما رواه المرزبانى فى نسبة هذين البيتين الى محمد بن عبد الملك الزيات ، ولو أن ابن الزيات كان مغموز الأصل ، أو مطعونا فى عروبته لكثر ذلك فى شعر الشعراء الذين تناولوه بالهجو والتجريح ـ وهم كثيرون ـ دفعهم الحقد والحسد الى النيل من ابن الزيات ، والتنقيب عن مثالبه ، فلم يجدوا بعد طول المعاناة الا ذمه بحرفة آبائه وأجداده . ولقد هاجم محمد بن عبد الملك الزيات القاضى أحمد بن أبى دواد ـ على ما سيأتى ذكره ـ وغمزه فى نسبه بقصيدته التى يقول فيها :

تأيد وادعى القربا وأثرى واستفاد أبا

فهو فى هذه القصيدة يشكك فى صحة انتماء أبى دواد الى قبيلة اياد العربية ، فلو كان هناك أدنى شك فى عروبة ابن الزيات لانتهز القاضى أحمد بن أبى دواد هذه الفرصة للنيل من غريمه، ولكال له الصاع صاعين ، وطعن عليه فى أصله ، وشكك فيه كما فعل ابن الزيات ، ولكنه لم يجد ما يعيره به الا لقبه الذى أورثته اياه تجارة أسرته فى الزيت ، ومع ذلك دافع ابن الزيات عن هذا اللقب ، ورد على خصومه بما يفحمهم ، وأشعرهم بأن هذا اللقب لا ينتقص من قدره ولا من حسبه ، فيقول :

الزيت لا يزرى بأحسابنا أحسابنا معروفة البيت

ولقد دافع صاحب كتاب أمراء البيان عن نسب ابن الزيات وأصله ، وقرر فيما قرره أنه كان عربى الأصل والنسب،لا تشوب

عروبته شائبة ، وهو فى هذا يؤيد ما ذهبنا اليه . وثمة دليل آخر يدعم هذا الرأى ، وهو تلك الصلة الوثيقة التى كانت تجمع بين الجاحظ ومحمد بن عبد الملك الزيات ، وتلك العلاقة التى كانت تربط بينهما ، حتى ان الجاحظ فارق بغـداد عقب مصـرع ابن الزيات ، ولم يهنأ له عيش بعد صاحبه فيها ، والجاحظ ـ كمـا نعلم ـ لسان من ألسنة الرد على الشعوبية ، والتغنى بمفـاخر العرب ، والاشادة بأمجادهم ، فلو ان الجاحظ لم يكن على ثقة من عروبة ابن الزيات لما تفيأ ظله أيام وزارته ، ولما لازمه طـوال مدة حكمه ، ولما أهدى اليه كتاب الحيوان ، كما أهدى كتـاب البيان والتبيين الى القاضى أحمد بن أبى دواد العربى .

وهكذا نشأ محمد بن عبد الملك الزيات فى أزهى عصـور التاريخ العربى ، معتدا بعروبته ، وبلغته العربية ـ التى لم يعرف غيرها ـ وعاش دنياه العريضة يتطـلع الى مكان الصـدارة فى الدولة العباسية . وما ان حل عام عشرين ومائتين من الهجرة حتى كان ابن الزيات على موعد مع القدر ، فسلمه مقاليد الوزارة ، والقى اليه بزمام الحكم .

الفصل الثالث

ابن الزيات في الوزارة

وصل ابن الزيات الى المـركز الخطـير الذى صبت اليـه أحلامه ، وهفت اليه آماله ، فتولى الوزارة فى عهد المعتصم،وبلغ بجده وطموحه أسمى ما تصبو اليه النفوس ، وتتطلع اليه الآمال: فقد حكمه المعتصم فى شئون الحكم ، وبسـط فى الوزارة يده « وارتقى (١) من ابن تاجر يعد الدوانيق الى أرقى رتب الخلافة ، يصرف الأمور كما يرى ، ويقول : قد صنع بى الخليفة صـنيعة تفرد بها ، نقلنى من ذل التجـارة الى عز الوزارة . وأحرز ابن الزيات نعمة ـ كما قال له أحدهم ـ بحقها ، واستوجبها بما فيه من أسبابها » .

ولم يكن وصول ابن الزيات الى هذا المركز الخطير فلتة من فلتات القدر ، أو مصادفة لم يعمل لها حسابها ، أو يأخذ نفسـه بأسبابها ، بل تعاونت المصادفة مع التقدير ، واسـتقامت معه فى حساب المستقبل ، فعمل منذ انحرف به ميـله عن مهنـة الآباء

---

(١) أمراء البيان ج ١

والأجداد على أن يترسم الطريق الذى يصل به الى أمنيته،ويحقق له مطامعه فى أكبر مناصب الدولة .

وكتب التاريخ تجمع على أن الحظ قد لعب دوره فى الوصول بصاحبنا الى مركز الوزارة ، ومهد له الطريق اليها ، فلم يجر اسمه على لسان المعتصم قبل أن تدفع به المصادفة الى مجلس المعتصم ، ولم تتجه اليه الأنظار فى بلاط الخليفة لتولى هذا المنصب . على أن ابن الزيات كان فى قرارة نفسه يعمل على الوصول الى منصب الوزارة ، وتطوف به أحلامه حول هذا المركز الخطير ،وتتدافع مطامحه الى أبعد الغايات ، فلما حانت الفرصة المواتية لم يتوان فى اقتناصها واهتبالها ، وحشد لها كل ما أعده من خبرة ودراسة وذكاء .

ولو ان الحظ وحده هو الذى واتى ابن الزيات ، ولعب دوره فى ايصاله الى أكبر منصب فى عصره بعد الخلافة ، دون سند من كفاءة أو علم أو مقدرة ، لانكشف حاله بعد قليل ، ولقصرت همته عن تدبير الأمور وسياسة الملك ، ولبان عليه التصنع والمعجزة ـ على كثرة شانئيه وحساده ـ ولكن الفرصة واتت رجلا طموحا طلعة ، تتعلق همته بكبار الأمور ، وتتطاول آماله الى عظائمها ، وهو فى تطلعه وطموحه لم يسلك طريق الزلفى والنفاق ، أو يستخدم الدس والوقيعة ـ على فشوهما فى عصره ـ وانما جمل نفسه لمنصب الوزارة بما يتطلبه من رجاحة عقل ، وسعة علم ،

وقوة ادراك ، ونفاذ بصيرة ، وحسن فطنة ، فكان له ما أراد ، وفوق ما أراد .

ولقد اتفقت الروايات ـ فيما عدا الطبـرى ـ على السبب الذى مهد لابن الزيات وصوله الى مركز الوزارة ، وأجمعت على أن المصادفة قد دفعت بابن الزيات الى طريق المعتصم فاستوزره . ونحن نورد فيما يلى أهم هــذه الروايات التى وردت فى كتب المؤرخين :

قال ابن خلكان (١) « كان أحمــد بن عمــار البصرى وزير المعتصم ، فورد على المعتصم كتاب من بعض العمــال ، فقــرأه الوزير عليه ، وكان فى الكتاب ذكر الكلأ ، فقال له المعتصم : ما الكلأ ؟ فقال الوزير : لا أعلم ! وكان قليل المعرفة بالأدب . فقال المعتصم : خليفــة أمى ، ووزير عامى !! وكان المعتصم ضعيف الكتابة ، ثم قال : ابصروا من بالباب من الكتاب ، فوجدوا محمد ابن الزيات المذكور ، فأدخلوه عليه ، فقال له : ما الكلأ ؟ فقال : الكلأ العشب على الاطلاق ، فان كان رطبا فهو الخلا ، فاذا يبس فهو الحشيش ، وشرع فى تقسيم أنواع النبات . فعــلم المعتصم فضله ، فاستوزره وحكمه وبسط يده » .

ويروى ابن العماد (٢) الحنبلى عن ابن الأهدل ما يتفق مع رواية ابن خلكان فيقول : « ان ابن الزيات كان فى أول أمره كاتبا ،

---

(١) وفيات الأعيان ج ٤ .

(٢) شذرات الذهب فى أخبــار من ذهب ج ٢ .

فاتفق أن المعتصم سأل وزيره أحمد بن عمار البصرى عن الكلأ، ما هو ؟ فقال لا أدرى ، فقال المعتصم : خليفة أمي ووزير عامي، انظروا من بالباب من الكتاب ، فوجدوا ابن الزيات ، فسأله عن الكلأ ، فقال : العشب على الاطلاق ، فان كان رطبا فهو الخلا ، وان كان يابسا فهو الحشيش ، وشرع فى تقسيم النبات فاستوزره وارتفع شـأنه » .

وذكر صاحب كتاب هبـة الأيام أن ابن الزيات كان فى أول أمره من جملة الكتاب ، وكان أحمد بن عمار وزير المعتصم ، ثم ذكر قصة « الـكلأ » على ما رواها ابن خلـكان وابن العمـاد الحنبلى ، وأنها كانت السبب فى توليته الوزارة .

وينفرد الطبرى بأن ابن الزيات ولى الوزارة بعد الفضـل ابن مروان بعد أن غضب عليه المعتصم لاستـئثاره بالحـكم ، وتضييقه على الخليفة فى النفقـات ، ولا بأس من ايراد ما ذكره الطبرى ، اذ يستبين من خلاله ما كان لمركز الوزارة من جليـل الخطر ، وعظيم الشأن ، وكيف وصل الفضل بن مروان الى هذا المنصب .

يقول الطبرى : «ان الفضل بن مروان كان مع كاتب للمعتصم يقال له يحيى الجرمقانى ، وكان الفضل بن مروان يخط بين يديه، فلما مات الجرمقانى صار الفضل فى موضعه ، ولم يزل كذلك حتى بلغ المعتصم الحال التى عليها ، والفضل كاتبه ، ثم قدم الفضـل

قبل موت المأمون بغداد ينفذ أمور المعتصم ، ويكتب على لسانه بما أحب . حتى قدم المعتصم خليفة ، فصار الفضل صاحب الخلافة ، وصارت الدواوين كلها تحت يديه ، وكنز الأموال ، وأقبل أبو اسحق (المعتصم) حين دخل بغداد يأمره باعطاء المغنى والملهى ، فلا ينفذ الفضل ذلك ، فثقل على أبى اسحق . حدثنى ابراهيم بن جهرويه ؛ ان ابراهيم المعروف بالهفتى — وكان مضحكا — أمر له المعتصم بمال ، وتقدم الى الفضل بن مروان فى اعطائه ذلك ، فلم يعطه الفضل ما أمر له به المعتصم ، فبينا الهفتى يوما عند المعتصم بعد ما بنيت له داره التى ببغداد ، واتخذ له فيها بستانا ، قام المعتصم يمشى فى البستان ينظر اليه ، والى ما فيه من أنواع الرياحين والغروس ومعه الهفتى . وكان الهفتى يصحب المعتصم قبل أن تفضى الخلافة اليه،فيقول له فيما يداعبه: والله لا تفلح أبدا . قال : وكان الهفتى رجلا مربوعا ذا كدنة ، والمعتصم رجلا معروقا خفيف اللحم ، فجعل المعتصم يسبق الهفتى فى المشى ، فاذا تقدمه ولم ير الهفتى معه التفت اليه ، وقال له : مالك لا تمشى ؟ يستعجله المعتصم فى المشى ليلحق به ، فلما كثر ذلك من أمر المعتصم على الهفتى قال الهفتى مداعبا له : كنت أصلحك الله أرانى أماشى خليفة ، ولم أكن أرانى أماشى فيجا(١)، والله لا أفلحت . فضحك منها المعتصم ، وقال : ويلك ! هل بقى من الفلاح شىء لم أدركه ؟ أبعد الخلافة تقول هذا لى ؟ فقال له

(١) كلمة فارسية معناها رجل البريد .

الهفتى : أتحسب أنك قد أفلحت الآن ، انما لك من الخلافة الاسم ، والله ما يجاوز أمرك أذنيك ، وانما الخليفة الفضل ابن مروان الذى يأمر فينفذ أمره من ساعته . فقال له المعتصم : وأى أمر لى لا ينفذ ؟ فقال له الهفتى : أمرت لى بكذا وكذا منذ شهرين ، فما أعطيت مما آمرت به منذ ذاك حبة . قال : فاحتجنها على الفضل المعتصم حتى أوقع به . فقيل ان أول ما أحدثه فى أمره حين تغير له أن صير أحمد بن عمار الخراسانى زماما عليه فى نفقات الخاصة ، ونصر بن منصور بن بسام زماما عليه فى الخراج وجميع الأعمال . وكان محمد بن عبد الملك الزيات يتولى ما كان أبوه يتولاه للمأمون من عمل المشمش والفساطيط وآلة الجمازات ويكتب على ذلك (مما جرى على يدى محمد بن عبد الملك) .
فلما كانت سنة ٢١٩ هـ خرج المعتصم يريد القاطول ، ويريد للبناء بسامرا ، فصرفه كثرة زيادة دجلة ، فلم يقدر على الحركة ، فانصرف من بغداد الى الشماسية ، ثم خرج بعد ذلك ، فلما صار بالقاطول غضب على الفضل بن مروان وأهل بيته فى صفر ، وأمرهم برفع ما جرى على ايديهم ، وأخذ الفضل وهو مغضوب عليه فى عمل حسابه ، فلما فرغ من الحساب لم يناظر فيه ، وأمر بحبسه ، وأن يحمل الى منزله ببغداد فى شارع الميدان ، وحبس أصحابه ، وصير مكانه محمد بن عبد الملك الزيات . فصار محمد

وزيرا كاتبا ، وجرى على يديه عامة ما بنى المعتصم بسامرا من الجانبين الشرقى والغربى ، ولم يزل فى مرتبته حتى استخلف المتوكل فقتل محمد بن عبد الملك الزيات » .

فأقوال الطبرى (١) صريحة فى ان ابن الزيات ولى الوزارة بعد الفضل بن مروان لما غضب عليه المعتصم ، ولم يل الوزارة بعد أحمد بن عمار كما ذكرت المصادر الأخرى . ويبدو ـ للربط بين الروايتين ـ أن المعتصم لما غضب على الفضل بن مروان ، وصير أحمد بن عمار زماما عليه فى نفقات الخاصة أمر ابن عمار أن ينهض مؤقتا بأعباء الوزارة ، حتى يجد من يخلف الفضل ابن مروان ، فلما أدخل عليه ابن الزيات فى قصة الكلأ ، ووقف منها على رجاحة عقله ، وسعة اطلاعه ، استوزره .

وقد ورد فى كتاب أمراء البيان ما يفيد أن الفضل بن مروان كان شديد الحذر من منافسة ابن الزيات له فى بلاط الخلافة ، وكان يتوسم فيه من الذكاء ما يؤهله لمركز الوزارة ، فيقول :

« وكان الفضل بن مروان نصرانى الأصل ، قليل المعرفة بالعلم حسن المعرفة بخدمة الخلفاء ، وقد حاول أن يسقط محمد ابن عبد الملك الزيات لأنه كان يتفرس فيه الذكاء النادر والعلم ، ولا يحب أن يشاهده فى دار الخلافة ، ولا أن يخالط أهلها ،

---

(١) ذكر ابن الاثير فى تاريخه هذه القصة نقلا عن الطبرى ، وتابعه فى أن ابن الزيات تولى الوزارة بعد الفضل بن مروان ج ٦ ص ٥٠ .

ويعرف اسمه ورسمه ، فأبت الأقدار الا رفعه ، ثم تولى الوزارة أحمد بن عمار بعد أن غضب الخليفة على الفضل بن مروان ، ولما عرف المعتصم غناء ابن الزيات وعجز ابن عمار وجهـله ، قال له المعتصم : انظر أنت فى الدواوين ، وهذا يعرض على الكتب ، ثم استوزر ابن عبد الملك ، وصرف ابن عمار صرفا جميلا ، فاصبح ابن الزيات وزيرا وكاتبا ، وجرى على يديه عامة ما بنى المعتصم بسامرا من الجانبين الشرقى والغربى ، وأحيا المعتصم بذلك سنة أخيه المأمون بتقليده الوزارة الى كاتب ، وكان لا يتولاها فى عهد أخيه الا من جمع أسباب الفضل ، وذهب فى الأدب كل مذهب»

وهذا يقرب مسافة الخلف بين رواية الطبرى وما رواه غيره من المؤرخين ، ويتفق مع ما ذكرناه آنفا من أن وزارة ابن عمار لم تلبث الا عمر الزهر ، وتولى مقاليد الحكم محمد بن عبدالملك الزيات .

ومن العجيب أن ابن العماد الحنبلى فى كتابه شذرات الذهب عاد فى أخبار عام ٢٢٠ يؤيد رأى الطبرى ، بعد أن اتفق مع ابن خلكان فى روايته كما سبق فيقول : « وفيها غضب المعتصم على وزيره الفضل بن مروان ، وأخذ منه عشرة آلاف دينار ، ثم نفاه، واستوزر محمد بن عبد الملك الزيات » .

والأقرب الى الصواب ــ للتوفيق بين اختلاف المصادر ــ هو ما ذكرناه من قبل فى تعليل هذا الاختلاف ، وسواء صحت هذه

الرواية أو تلك فان الذى يعنينا ان المعتصم قلد محمدبن عبدالملك الوزارة ، وأطلق يده فى شئون الحكم .

أما كيف استقبل ابن الزيات الوزارة ، ونهض باعبـائها ، وساس أمور الناس فيها ، فقد تكفلت كتب التاريخ ببيان ذلك:

يروى أنه حين تقلد الوزارة فى عهد الخليفة المعتصم وضع لها تقليدا جديدا لم يجر العرف عليه فى عهد أسلافه من قبل ، فاشترط من الشروط مايضفى على مركز الوزارة كثيرا من المهابة والجلال، فجعل للوزير زيا خاصا يتميز به عن غيره ، كما يجرى العرف على ذلك حتى الآن فى بعض الممالك اذ يتحلى رئيس الوزارة بحلة التشريفة الكبرى ، ويرصع صدره بالأوسمة والنياشين . واشترط ابن الزيات حين عرضت عليه الوزارة ألا يلبس القباء ، وأن يلبس الدراعة ، ويتقلد عليها سيفا طويل الحمائل . وأن يفرد له حرس خاص يقوم على حراسته وخدمته ، وقد أجابه المعتصم الى ماطلب.

وهذه البادرة التى استهل بها ابن الزيات عهده فى الوزارة تدلنا على كثير من أخلاقه ، ففيها مايدل على الاعتـداد بالنفس والثقة بها ، وفيها جماع سياسته التى يريد أن يستهل بها حكمه ، وأن يجعـل لمركزه من الخطورة فى أعين الشعب ما يحملـه على احترامه .. فهو ــ فى واقع الأمر ــ يريد أن يفهم الناس أن شئون الحكم قد تغيرت وتطورت ، وأن الحزم والقوة هما عنوان العهد الجديد ، وأن أمور الناس لاتستقيم الا بهما ، وأن مركز الوزارة

يجب أن يحاط بكثير من المظاهر التى تميزه عن غيره من المراكز فى بلاط الخليفة . ولذلك ما لبث ابن الزيات أن قبض على زمام الحكم بيد من حديد ، وأطلق له الخليفة يده فى شئون الرعية ، وبسط سلطانه على الدولة ، فاستبد بشئونها ، وجعل شعاره فى تصريف الأمور تلك القولة الشائعة التى نسبت اليه «الرحمة خور فى الطبيعة وضعف فى المنة » مما أطلق فيه لسان حساده وشانئيه فطعنوا عليه فى دينه ، واستغلوا هذا الشعار للنيل منه ، لأنه أنكر صفة الرحمة التى وصف الله بها نفسه فى كثير من المواطن . وفى ذلك يروى صاحب (١) الأغانى « عن ميمون بن هارون ، أن محمد بن عبد الملك الزيات كان يقول : « الرحمة خور فى الطبيعة وضعف فى المنة ، ما رحمت شيئا قط ، فكانوا يطعنون عليه فى دينه بهذا القول ، فلما وضع فى الثقل والحديد قال : ارحمونى ، فقالوا له : وهل رحمت شيئا قط فترحم ، هذه شهادتك على نفسك ، وحكمك عليها » .

ولم ينكر هذا الشعار من المؤرخين الا صاحب كتاب أمراء البيان ، حيث اتهم اعداء ابن الزيات بأنهم زيفوا عليه هذا الشعار وولدته مخيلتهم ، وتنادى به باطلهم ، ليطعنوا عليه فى دينه ، ولينالوا منه عند العامة والخاصة ، معللا ذلك « بانهم (٢) ماحملوا عليه ، ولفقوا من الأحاديث المسقطة له الا لأنه وصل الى المعالى

---

(١) الأغانى ح ٢٠

(٢) امراء البيان ج ١

عن جدارة ، وكم سعى غيره ليبلغوا منزلته فخابوا وما أفلحوا ، وعظم ما رمى به من تلفيق منافسيه وقاصديه ، ولن يرضى العامة والخاصة الا اذا عمل لهم رب الأمر والنهى المعقول وغير المعقول، وصاحب الحاجة ارعن لايروم الا قضاءها ، ومن كان على شيء من الاخلاق لايستقيم له حال مع الغوغاء ، ومن أراد ان يصدع بالحق مع الكبير والصغير مقته كل من لم يظفر بطلبته ، ويعز فى الطبقات من تصبر نفسه على مر الحق ، وحرارة الاصلاح والتقويم » .

على أن دفاع الكاتب ــ رغم حرارته ــ لايستقيم امام اجماع المؤرخين على اسناد هذا الشعار الى ابن الزيات ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان اسلوب ابن الزيات فى الحكم يتفق مع هذا الشعار نصا وروحا ، ويسايره معنى ومبنى ، فقد استحدث للتعذيب وسائل لم تكن معروفة من قبل ، وابتكر للعقاب ألوانا من البطش لاتمت الى الرحمة بوشيجة من الوشائج ، ولاتساير ابسط القواعد الانسانية . فقد عرف ابن الزيات فى التاريخ بصاحب « التنور » واشتهر به من دون وزراء الدولة العباسية جميعا ،وذلك لأنه هو الذى استحدث هذه الآلة الرهيبة لتعذيب الشعب وارهابه واكراه خصومه على الاعتراف ، والتنكيل بأعدائه فى أبشع صور التنكيل .

وقد أفاض المؤرخون فى وصف هذه الآلة الرهيبة بماتقشعر منه الابدان ، وتتقزز منه النفوس الرحيمة . فيقول ابن خلكان (١)

---

(١) وفيات الاعيان ج ٤

« وكان ابن الزيات قد اتخذ تنورا من حديد وأطراف مساميره المحدودةالى داخل ،وهى قائمة مثل رءوس المسال ، فىأيام وزارته وكان يعذب فيه المصادرين ، وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال، فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير فى جسمه ، فيجدون لذلك أشد الألم ، ولم يسبقه أحد الى هذه المعاقبة . وكان اذا قال له أحد منهم : أيها الوزير ارحمنى : فيقول له : الرحمة خور فى الطبيعة » .

وذكر المسعودى (١) : « أن ابن الزيات كان قد اتخذ للمصادرين والمغضوب عليهم تنورا من الحديد ، رءوس مساميره الى داخل ، قائمة مثل رءوس المسال فى أيام وزارته للمعتصم والواثق » وقال الخطيب البغدادى (٢) فى تاريخ بغداد : « وقد كان محمد بن عبد الملك الزيات قد صنع تنورا من الحديد ، فيه مسامير الى داخله ، ليعذب به من كان فى حبسه من المطالبين » . ومثل ما ورد فى خزانة الأدب للبغدادى (٣) « من أن ابن الزيات قد اتخذ تنورا من الحديد ، مساميره الى الداخل ، ليعذب فيه المصادرين والمطالبين ، فكيفما انقلب المعذب أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير فى جسمه ، واذا قال له أحد : ارحمنىأيها الوزير ، يقول له : الرحمة خور فى الطبيعة »

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٤ .

(٢) ج ٢

(٣) ج ١ طبعة بولاق

فهناك اجماع من المؤرخين على أن ابن الزيات قد ابتكر هذه العقوبة ، أو استخدمها ـ اذا كانت معروفة قبل ذلك ـ اداة من أدوات التنكيل والارهاب فى حكومته ، يدخل فى تنوره من يشاء ، ويعذب به من يريد ، امعانا فى العسف والطغيان ، وتمشيا مع سياسة الحزم والقوة التى اصطنعها ابن الزيات منذ تولى شئون الحكم .

ولم يكن تنور ابن الزيات هو الصورة البارزة من معالم حكمه فحسب ، بل ان بطشه بالناس ـ حتى بأصدق اصدقائه ، واستخدامه القسوة فى محاسبة الولاة واستصفاء أموالهم ، وطغيانه المطلق فى مؤاخذة المطالبين والمصادرين والتنكيل بهم ،كل ذلك كان مكملا للصورة البشعة التى صورها الرواة لحكمه ، ومتمما للألوان القاتمة التى غمرت الصورة بظلالها .

ولكن .. هل كان ابن الزيات جبارا بطبعه ، يجرى الاستبداد فى عروقه مجرى الدم ، ويطغى الطغيان على كل خلائقه ؟؟ أم ان سياسة الحكم كانت تقتضيه هذه الشدة ، وتتطلب منه هذه القسوة ، والا فسد الأمر ، وانهار النظام ، وحلت الفوضى ؟..

نحن نعلم أن ابن الزيات قد ولى الوزارة فى خلافة المعتصم وأن الخليفة المعتصم ـ كما يقول الرواة ـ لم يكن على حظ من العلم أو الأدب أو الثقافة ، بل كان لايجيد الخط على قول بعضهم ، وان الخليفة قد أطلق يد وزيره فى شئون الحكم ،وبسطها

فى أموره ، فحكم ابن الزيات حكما مطلقا ــ بحكم الظروف ــ دون أن يخشى رقابة أو مساءلة . ولم يكن المعتصم فى مثل ذكاء أخيه المأمون وعلمه ودهائه ، ولا فى مثل قوة أبيه الرشيد الذى أطاح بالبرامكة وأزال حكمهم . من أجل هذا لم يجد ابن الزيات أمامه القوة الرادعة من سلطان الخليفة التى تحد من جبروته وبطشه، بل بالعكس مد له المعتصم فى أسباب الطغيان بترك مقاليد الحكم كلها فى يد وزيره ، فأراد ابن الزيات أن يكون عند حسن ظن خليفته به ، وثقته فيه ، وأن يسوس الناس بشىء من الحزم والشدة ، لتستقيم الأمور فى عهد ضعف فيه سلطان الخلفاء ــ بعد أن كانوا مصدرا لكل السلطات ــ .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان ابن الزيات كان فى واقع الأمر مضطرا الى اصطناع هذه السياسة ، لأن الدولة فى عصره كانت تضم أخلاطا من شعوب الأرض ، وانماطا مختلفة من العقائد والمبادىء ، وكانت تضطرم بكثير من الثورات والانتفاضات والآراء الهدامة ، فلو سارت سياسة الحكم فيها على ضعف الخلفاء وتهاون الوزراء ، لفسد الأمر ، وضاعت الهيبة ، واختل النظام فابن الزيات فى كل ما صنع كان مسوقا اليه بعامل الحفاظ على هيبة الدولة ، واقرار النظام فى ربوعها المختلفة (١) .

---

(١) يؤيد هذا ما ورد فى قصيدة ابى تمام التى يمدح بها ابن الزيات حيث يقول :

لئن نقموا حوشية فيك دونها ... لقد علموا عن أى علق تناضل

ولذلك نلمس فى وصف ابن خلكان السابق للتنور ماينهض دليلا على ذلك ، وهو قوله : « وكان يعذب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال » . فهو لم يستخدم القسوة الا للمحافظة على أموال الدولة ، ومحاسبة الولاة المقصرين على ما فرطوا فى حق رعاياهم ، أو على ما بددوا من أمول الشعب .

ولو أن ابن الزيات لم يعمد الى هذه السياسة فى تدبير شئون الحكم ، واستخدم الرأفة والملاينة فى محاسبة ولاته ، وعطف على المصادرين ، وأمهل المطالبين بالأموال ، لاتهم بالتفريط فى حق الدولة ، ولشاعت الفوضى فى الولايات ، واستبد كل حاكم بولايته يتصرف فيها على هواه ، ويبدد من خراجها كما يشتهى ، ولانحلت العرى التى تربط كل ولاية بعاصمة الحكم ، كما حدث بعد ذلك حين ضعفت الدولة العباسية .

فأنت فى حكمك على سياسة محمدبن عبدالملك الزيات وتنوره بين عاملين : عامل الاشفاق على الرعية ، واتهامه بالقسوة والبطش وعامل التماس العذر له فى تلك السياسة التى لم يكن ثمةمندوحة عن استخدامها من أجل صالح الشعب ، وأموال الشعب . ولكن بقى السؤال الذى سقناه قبل ذلك من غير جواب ، وهو : هل كان ابن الزيات جبارا بطبعه ؟ ان ابن الزيات فى نظرنا قبل أنيكون سياسيا كان رجل فن وأدب وعلم ، وطبيعة الفنان ـ فيما نعلم ـ تنأى به عن أن يكون جبارا فى الأرض ، يبطش بالناس ، وينكل

بهم . فكيف اتفق لهذا الفنان المرهف الحس أن يترك من ورائه دويا فى منصب الوزارة ترتعد منه الفرائص ، وتخور العزائم، وتنخلع القلوب ، مما أطلق فيه السنة الخصوم والأعداء ؟؟ هل كان محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الكاتب الشاعر مصابا بازدواج الشخصية ، فهو رقيق العاطفة ، لين العريكة ، رحب الجناب حين يجلس الى الشعراء والأدباء والعلماء ، أو يخلو الى ندمائه فى مجالس قصفه ولهوه ، ثم هو طاغية جبار اذا ماضمه مجلس الحكم وأخذ ينظر فى أقضية الناس ، ومصالح الخلق ، فيصرخ فى زبانيته أن اشعلوا تنوركم ، وأوثقوا ضحاياكم ، واقذفوا بهم فى ذلك الوهج المضطرم ، حتى تنضج جلودهم ، وتتقرح ابدانهم !.

اننا نرجح فى محمد بن عبد الملك الزيات جانب الشاعرية ونقف فى صف الفنان دون أن تتحيف جانب الحق أو نميل ، ونعتقد أن مادفعه الى استخدام القسوة ـ حتى مع أعز أصدقائه انما هو حرصه الشديد على مصلحة الدولة ، ومصلحة الشعب . وهذا مما يتفق مع طبيعة الفنان الذى ينفر من كل ما يمس مثله العليا أو يهدمها ، ولو كانت فى شئون الحكم وأسلوبه .

وهذا صاحب كتاب امراء البيان ينظر الى نفس الموضوع من مثل هذه الزواية ، فهو يعترف بالقسوة التى استخدمها ابن الزيات فى حكومته ، ولكنه يلتمس له شتى المعاذير فى استخدام هذه القسوة ، كما حاول فيما سبق أن ينفى عنه الشعار المنسوب اليه

وهو « الرحمة خور فى الطبيعة ، وضعف فى المنة » ويدلل على أن ابن الزيات انما استخدم هذه القسوة لصالح الرعية ، وصالح العدل .فيقول فى امراء البيان : «وفى سنة ٢٢٩ نصب ابن الزيات لأصحاب المظالم العداوة ، فكشفوا وحبسوا ، وأقيموا للناس ولقوا كل جهد ، ومن جملتهم صديقه ابراهيم بن العباس الصولى نسى صداقته فى مطالبته بما تأخر فى ذمته من حق بيت المال ، فاستهدف لهجائه . وهكذا كان ابن الزيات مع سائر الناس لايجيز لعامل أن يسرق ، ولا للرعية أن تتلكأ فى أداء ما عليها ، حتى ينتظم سير الأعمال . فهو رجل الدولة خلق للحكم ، وكأن معانى الحكم ممزوجة بلحمه ودمه ، حتى لقد هجى بذلك ، وكان من حقه أن يمدح » .

ويعلل فى موضوع آخر أسباب تحامل الرواة عليه بسبب سياسته ، وانتقاصهم من مكانته ، فيقول : « لاجَرم أن اشتغال ابن الزيات بسياسة الدولة أضاع من مكانته الأدبية ، والناس فى كل زمان يرهبون القريب من السلطان ، ويغتابونه فى السر ، ويستثقلون ظله ، أو يعادونه لعدة أسباب ، فابن الزيات كان يدعو الأمة الى حرمة القوانين ، وكثير من الناس من يحبون الخروج عليها ، ويمقتون من يدعو اليها ، ويحنقون عليه . ومنهم الحساد الذين يشق عليهم الاقرار بفضائل أهل الفضل ، ومنهم أعداء عزه ، وأعداء مذهبه ، ومثل منصبه الخطير مما تلتهب الصدور الى الوصول اليه . ومن تولى وزارة أعظم خلافة أربع عشرة سنة

لخليفتين دون انفصال ، وتولاها للثالث أيضا ، على مالم يكن بعهد له نظير فى دولة من الدول لايتوقع من الناس كافة أن يجمعو على حبه . ولطالما سلبت أهواء السياسة من ذوى الفضل فضلهم ، ومن أجلها عراهم ارباب اللؤم من محامدهم » .

ونحن لايعوزنا الدليل على حرص محمد بن الملك الزيات على أموال الدولة ، وخوفه عليها من سرف الخلفاء والأمراء ، وكثـرة معاناته من ذلك، فقد تكفلت كتب التاريخ ببيان ذلك كله ،وأظهرت لنا كيف كان هذا الوزير يقف فى وجه خليفته احيانا ليبقى عـلى أموال الدولة ، وكيف كان يصطنع الحزم مع الأمراء فى أعطياتهم ورواتبهم .

وفيما رواه صاحب الاغانى (١) عن قصة الواثق وقلم الجارية ماينفصح عن سياسة ابن الزيات فى كل مايتعلق بشئون الدولة المالية قال صاحب الاغانى : « كانت قلم الصالحية (٢) مولدة صفراء ، حلوة ، حسنة الغناء والضرب، حاذقة ، قد أخذت عن ابراهيم وابنه اسحق ، وكانت لصالح بن عبد الوهاب أخى أحمد بن عبد الوهاب كاتب صالح بن الرشيد ، وقد غنى أحد المغنين لها لحنا بين يدى الواثق فى شعر محمد بن كناسة ، قال :

---

(١) الاغانى ج ٩

(٢) ورد اسـمها فى تاريخ الـكامل لابن الاثير « علم » جارية صالح بن عبـد الوهـاب

في انقباض وحشـــمة فاذا صادفت أهـل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سـجيتها وقلت ماقلت غـير محتشـم

فسأل الواثق عن الصنعة فيه ، فقيل : لقلم الصالحيه جارية صـالح بن عبد الوهاب ، فبعث الى محمد بن عبد الملك الزيات فأحضره ، فقال : ويلك من صالح بن عبد الوهاب هذا ؟ فأخبره . قال : أين هو ؟ ابعث فأشخصه ، وأشخص معه جاريته ، فقـدما على الواثق ، فدخلت عليه قلم ، فأمرها بالجلوس والغناء فغنت ، فاستحسن غناءها ، وأمر بابتياعها ، فقال صالح : أبيعها بمـائة الف دينار وولاية مصر ، فغضب الواثق من ذلك وردها عليه . ثم غنى بعد ذلك زرزور الكبير فى مجلس الواثق صوتا ، الشعر فيه لأحمد بن عبد الوهاب أخي صالح ، والغناء لقلم ، وهو ..

أبت دار الأحبـة أن تبينـــا أجـدك ما رأيت لهـا معينا
تقطع نفسه من حب ليــلى نفوســا ما أثبن ولا جـزينا

فسأل الواثق لمن الغناء ؟ فقيل : لقلم جارية صالح ، فبعثالى ابن الزيات أشخص صالحا ومعه قلم ، فلما أشخصهما دخلت على الواثق ، فأمرها أن تغنيه هذا الصوت فغنته ، فقال لها : الصنعة فيه لك ؟ قالت : نعم ياأمير المؤمنين . قال : بارك الله عليك ،وبعث الى صالح فأحضره ، فلما حضر قال : أما اذ وقعت الرغبة فيها من أمير المؤمنين فما يجوز أن أملك شيئا له فيه رغبة ، وقد أهديتها الى أمير المؤمنين ، فان من حقها على اذا تنـاهيت فى قضائه أن

أصيرها ملكه ، فبارك الله له فيها ، فقال له الواثق : قد قبلتها ، وأمر ابن الزيات أن يدفع اليه خمسة آلاف دينار ، وسماها احتياطا ، فلم يعطه ابن الزيات المال ، ومطله به ، فوجه صالح الى قلم من أعلمها ذلك ، فغنت الواثق ــ وقد اصطبح ــ صوتا ، فقال لها الواثق : بارك الله فيك وفيمن رباك ، فقالت : ياسيدى ، وما نفع من ربانى الا التعب ، والغرم على ، والخروج منى صفرا ، قال : أو لم آمر له بخمسة آلاف دينار ؟ قالت : بلى ، ولكن ابن الزيات لم يعطه شيئا . فدعا بخادم من خاصة الخدم ، ووقع الى ابن الزيات بحمل الخمسة آلاف دينار اليه ، وخمسة آلاف دينار أخرى معها قال صالح : فصرت مع الخادم اليه بالكتاب فقربنى وقال : أما خمسة الآلاف الأولى فخذها فقد حضرت ، وخمسة الآلاف الأخرى أنا أدفعها اليك بعد جمعه !! فقمت ، ثم تناسانى كأنه لم يعرفنى ، وكتبت اقتضيه ، فبعث الى ، اكتب قبضا بها وخذها بعد جمعه ، فكرهت أن أكتب قبضا بها فلا يحصل لى شىء فاستترت وهو فى منزل صديق لى ، فلما بلغه استتارى ، خاف أن أشكوه الى الواثق ، فبعث الى بالمال ، وأخذ كتابى بالقبض ، ثم لقينى الخادم بعد ذلك ، فقال لى : أمرنى أمير المؤمنين أن أصير اليك فأسألك ، هل قبضت المال ، قلت : نعم قد قبضته ، قال صالح : وابتعت بالمال ضيعة وتعلقت بها ، وجعلتها معاشى ، وقعدت عن عمل السلطان فما تعرضت منه لشىء بعدها » .

فابن الزيات يجاهد ما وسعه الجهد فى الحفاظ على أموال الدولة ، ويؤجل دفع ما أمره الخليفة بدفعه فى احدى نزواته ، عله ينسئ ، أو تعيى المماطلة صاحب الحق ، فيبقى للدولة مالها .

وأخرى كانت سببا فى غضب الواثق على ابن الزيات ، حتى أقسم على البطش به ان ولى الخلافة ، وهى تدل من جهة على شدة حرص الوزير على مال الدولة ، وتدل من جهة أخرى على قسوته وشدته حتى على ولى عهد المسلمين « الواثق» .

روى صاحب كتاب أمراء البيان (١) « أن المعتصم أمر بأن يعطى الواثق عشرة آلاف ألف درهم ، يستعين بها على أمره ويصلح بها ما يحتاج الى اصلاحه ، فدافعه ابن الزيات فى ذلك مدافعة متصلة ، أحوجت الواثق الى شكايته الى المعتصم ، فانكر المعتصم تأخر المال عن ولده ، فقال ابن الزيات : يا أمير المؤمنين ، العدل أولى بك ، وأشبه بقولك وفعلك ، ولك عدة أولاد أنت فى أمرهم بين خلتين ، اما أن تسوى بينهم فى العطية ، فتجحف بيت المال ، واما أن تخص بعضهم فتحيف على الباقين .. فقال المعتصم : قد رهنت لسانى ، فما تصنع ؟ قال : تأمر لباقى ولدك باقطاعات وصلات ، وتطلق لهرون (الواثق) صدرا من المال ، فأدافعه

---

(١) امراء البيان ج ١ . وقد وردت القصة ايضا فى الجزء الرابع من وفيات الاعيان ..

بباقيه ، ويتسع الأمر قليلا ، وندبره بعد ذلك بما تراه . فقال له : وفقك الله ، فمازلت أعرف الصواب فى مشورتك. وتأدى الخبر الى هرون (الواثق) فحلف بعتق عبيده ومماليكه ، وبحبس عدة خيل ، ووقف عدة ضياع ، وصدقة مال جليل لئن ظفر بمحمد ابن عبد الملك الزيات ليقتلنه وكتب اليمين بخطه ، وجعلها فىدرج وأودعها دايته ، ومرت مدة وأفضى الأمر الى هرون ، وكان ذا أناة وعقل ، فكره أن يعاجله ، فيقول الناس : بادر بشفاء غيظه .ثم عزم على الايقاع به ، فتقدم بأن يجمع له من وجوه الكتاب من يصلح لولاية الدواوين والوزارة ، فجمعوا ، ودعا بواحد منهم وقال له : اكتب كذا فى أمر رسمه له ، فاعتزل وكتب ، وعرض الكتاب عليه فلم يرضه ، حتى امتحن الجميع ، فأمرصاحبهفقال: أدخل من الملك مضطر اليه محمد بن عبد الملك الزيات ، فجىءبه وهو واجم مضطرب ، فلما وقف بين يديه قال له : اكتب الى صاحب (١) خراسان فى كذا وكذا ... فأخرج من كمه نصفا ، ومن خفه دواة ، وابتدأ يكتب بين يديه حتى فرغ من الكتاب ، ثم أخرج خريطة فيها حصى ، فأترب الكتاب وأصلحه ، وتقدم فناوله اياه ، فوجده قد أتى على جميع ما فى نفسه ، فأعجب به جدا ،

---

(١) فى رواية ابن خلكان أن الامر حين صار الى الواثق أمر الكتاب أن يكتبوا مايتعلق بأمر البيعة ، فكتبوا . فلم يرض بما كتبوه ، فكتب ابن الزيات نسخة وصينها ، وأمر بتحرير المكاتبات عليها ، فكفر عن يمينه ، وقال : عن المال والفدية عن اليمين عوض ، وليس عن الملك وابن الزيات عوض .

وقال : اختمه ، فأخرج من الخريطة طينا فوضعه عليه ، وتنــاوله فختمه وأنفذه من ساعته . فقال الواثق لخادم له:امض الى دايتي، وقل لها توجه الى بالدرج الفلانى ، فمضى الخادم فجاء به،فأخرج الرقعة ودفعها اليه ، فقال ابن الزيات : يا أمير المؤمنين أنا عبد من عبيدك ان وفيت بيمينك فأنت محكم ، وان غفــرت وصــفحت كان أشــبه بك ، قال : لا والله ، ما يمنعنى من الوفاء بيمينى الا التعاسة على أن يخلو الملك من مثلك ، وأمر بعتق من حلف بعتقه، ووقف الضياع ، وحبس الخيل ، وأنفذ صــدقة المــال . وقال الواثق : عن المال والفدية عن اليمين عوض ، وليس عن الملك وابن الزيات عوض » .

ويتناول صاحب النشوار قصة غضب الواثق على ابن الزيات من ناحية أخرى ، وان كانت لا تخرج فى تفاصيلها عما عرف عن ابن الزيات من الحزم والمحافظــة على أموال الدولة ، فيقــول : « غضــب الواثق على ابن الزيات بما كان محمــد بن عبد الملك يعامله به فى أيام أبيه ، فمن ذلك أن معلم الواثق شكا الى المعتصم أن الواثق لا يتعلم ، فاذا طالبه بذلك شتمه ، ووثب عليه ، فأمر المعتصم محمــد بن عبــد الملك الزيات بأن يضرب الواثق أربع مقارع ، فخرج محمد ، واستدعى الواثق ، وضربه ثلاث عشرة مقرعة حتى مرض ، فلما عرف أبوه الخبــر أنكر ذلك ، وحلف للواثق أنه ما أمر محمدا الا بأن يضربه أربع مقارع ، فأخفــاها الواثق فى نفسه ، فكان يبغضه ، وعلم محمد بذلك فكان يقصده

فى ضياعه وأملاكه لما ترعرع ، وصار أميرا . فوقع المعتصم يوما أن يقطع الواثق ما قيمته ألف ألف دينار ، فمحاها محمد وكتب ما قيمته ألف ألف درهم ، فلما دخل عليه الخادم ، وعرفه ماعمله محمد ، وثب الى أبيه وعرفه بذلك ، وعرض التوقيع عليه ، فقال له المعتصم : ما أغير ما وقعت به ، وما أرى فى التوقيع اصلاحا، وكان محمد قد أجاد محوه ، وعلم المعتصم أن رأى محمد فى الاقتصاد أصلح . فبطل ما كان يريده الواثق وانصرف ، ثم قال لخادمه : قد تم على من هذا الكلب كل مكروه ، فان أفضت الخلافة الى فقتلنى الله ان لم أقتله،ثم قال له:أنت خادمى وثقتى، فان أفضى هذا الأمر الى فاقتله ساعة أخاطب بالخلافة ولا تشاورنى ، وجئنى برأسه . قال : فمضت الأيام ، وتقلد الواثق ، فحضر الدار فى أول يوم محمد بن عبد الملك الزيات مع الكتاب، فتقدم الواثق الى الكتاب بأن يكتب كل منهم نسخة بخبر وفاة المعتصم ، وتقلده الخلافة ، فكتبوا بأسرهم ، وعرضوا ذلك عليه فلم يرض ، فقال لمحمد : اكتب أنت ، فكتب فى الحال بلا نسخة كتابا حسنا ، وعرضه فاستحسنه ، وأمر بتحرير الكتب عليه ، ولم يبرح حضرته حتى أقره على الوزارة ، وخرج من بين يديه والناس كلهم خلفه ، قال الخادم : فعجبت من ذلك وقلت : تراه أنسى ما كان أمرنى به ؟ لم لا أستأذنه فى ذلك ، وأذكره به ؟ فتقدمت اليه لما خلا ، وأذكرته الحديث واستأذنته ، فقال : ويحك ! السلطان الى محمد بن عبد الملك أحوج من محمد الى السلطان»

وشبيه بهذا ما روته كتب التـاريخ عن المعـاملة التى كان يلقـاها المتوكل وهو ولى للعهـد فى خلافة الواثق من الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، فقد ضيق عليـه فى مخصصـاته حتى لا يمعن فى الاسراف واللهو،وعامله كما يعامل افراد الناس، مما أحفظ عليه المتوكل ، حتى نكبه فى خـلافته ، فابن الزيات لا يفرق فى المعاملة بين كبير وصـغير ، الكل أمامه سـواسية ، لا فرق بين ولى عهد المسلمين ورجل من عامة الناس ، فهو عدو الاسراف حيث وجد ، حريص على كل أمـوال الدولة فى كل تصرفاته ، ولو كان الطامعون فيهـا من الأمراء والأصـدقاء ، لا يبالى فى سبيل ذلك غضب الغاضبين ، وحقـد الحـاقدين ، ولا يحتاط لمستقبل الأيام فيرضى أولياء العهد ، ويتملقهم ، حتى لا يبطشوا به ان ملكوا،ولا يتعظ بما جرى له مع الواثق قبل أن يلى الخلافة ، فيغدق على أخيه من أموال الدولة ، ضمانا لمستقبل أيامه معه ، شأن الفنان الذى تتملكه نوازع الفن ، فتنأى به عن كل اسفاف وتملق .

حتى ان صديقه الحميم ابراهيم بن العباس الصولى لم تشفع له صداقته ، ومركزه الأدبى عنـد ابن الزيات حين أسرف فى نهب أموال ولايته بالأهواز ، فعزله وحبسه ، واستصفى أمواله ، ولم ينقذه من يد ابن الزيات الا نكبته على يد المتوكل .

ولقد أتى على بغداد حين من الدهر فى خلافة الواثق ، كانت الخلافة تدور فيه على ايتاخ وكاتبه سليمان بن وهب وعلى أشناس

وكاتبه أحمد بن الخطيب فكانوا يغترفون من أموال الدولة ما يشاءون ، ويجمعون من أموال الخراج ما يريدون ، فعز هذا الأمر على الوزير ابن الزيات ، ودفعته طبيعته فى الحرص على أموال الدولة الى أن يضع لهذا العبث والاسراف حدا . ولكن يد هؤلاء القواد وكتبتهم كانت أقوى من يده بما تحت ايديهم من الجند الاتراك ، غير أنه لم ييأس ، وظل يعمل الحيلة فى رفع الأمر الى الواثق ليوقفه على ما يهدد خزائنه من خراب ، فصنع فى ذلك قصيدة (١) ، وأوصلها الى الواثق على أنها لبعض أهل العسكر ، فكان سلاحه الشعرى سببا فى رفع يد هؤلاء عن التدخل فى شئون الحكم ، والحد من نهبهم لأموال الدولة . والضرب على أيدى أنصارهم وجنودهم .

هذا البطش بالعابثين المستهترين ، وهذا الحفاظ على أموال الدولة ، وهذا الحزم الذى صبغ حكم الوزير ابن الزيات بصبغته . هو ما دعا أكثر المؤرخين الى وصفه بالطغيان والعسف ، فالسكندرى فى الوسيط يقول عنه انه كان داهية جبارا ، وينعته فى موضع آخر «بالوزير العظيم الشاعر الكاتب السياسى الجبار ، ويقول عنه الدكتور جميل سعيد فى مقدمة ديوانه « كان فى وزارته جبارا متكبرا غليظ القلب خشن الجانب ، مبغضا الى الخلق ، ولكنه

---

(١) جاء فى مطلعها :

اجرت أم رقدت عيناك من عجب	فيه البرية من خوف ومن وجل
وليت أربعة أمر العباد معا	وكلهم حاطب فى حبل محتبل

كان رجلا لا نظير له فى عصره » ، وما ذلك الا لما استخدمه هذا الوزير فى سياسة الملك من حزم وشدة ، وانك لتلمس هذا الحزم فى شعر مادحيه من كبار الشعراء يمدحونه به ويشيدون بذكره ، فيقول البحترى فى مدحة :

صارم العزم ، حاضر الحزم ، سارى ال
فكر ، ثبت المقام ، صلب العود

ويقول أبو تمام :

خلق مشرق ورأى حسام
ووداد عذب وريح جنوب
ان تقاربه أو تباعده ما لم
تأت فحشاء فهو منك قريب

وبعد ، فان حياة ابن الزيات لم تكن — فى وزارته — بطشا وتنكيلا بالناس فى غير ماسبب ، ولم تكن طغيانا يعصف بالآمنين وغير الآمنين ، واعصارا يجتاح البرىء والمذنب ، لقد كانت فيها جوانب من الرحمة توائم طبيعة الفنان . ذكر (١) صاحب الأغانى « أن رجلا توسل الى آخر بمحمد بن عبدالملك وادعى قرابته ليقضى حاجته ، وبلغ ذلك محمدا فكتب الى المتوسل اليه : بلغنى أن رجلا ادعى قرابتى ، وأورد عليك كتابا ذكر أنه منى ، وما أنكر أن

---

(١) الاغانى ج ٢٠

ينتفع بى من توسل بنسبى ، الا أن من ادعى قرابة ، ولا قـرابة له كان استعمال الشفاعة فى أمره أولى » أرأيت أبلغ من هذا فى الكشف عن جوانب هذه النفس العظيمة ؟؟ تلك واحدة ، وأخرى رواها أبو الفرج نفسه قال : « حدثنى هرون بن محمد بن عبد الملك قال : جلس أبى يوما للمظالم ، فلما انقضى المجلس رأى رجـلا جالسا ، فقال له : ألك حاجة ؟ قال : نعم ، تدنينى اليك فانى مظلوم فأدناه فقال : انى مظلوم وقد أعوزنى الانصاف . قال : ومن ظلمك؟ قال : أنت ، ولست أصل اليك فأذكر حاجتى . قال : ومن يحجبك عنى وقد ترى مجلسى مبذولا . قال : يحجبنى عنك هيبتى لك ، وطول لسانك وفصاحتك ، واطراد حجتك . قال : ففيم ظلمتك ؟ قال : ضيعتى الفلانية أخذها وكيلك غصبا بغير ثمن ، فاذا وجب عليها خراج أديته باسمى ، لئلا يثبت لك اسم فى ملكها فيبطل ملكى ، فوكيلك يأخذ غلتها ، وأنا أؤدى خراجها ، وهذا مما لم يسمع فى الظلم مثله . فقال محمد : هذا قول تحتاج عليه الى بينة وشهود وأشياء . فقال له الرجل : أيؤمننى الوزير من غضبه حتى أجيب ؟ قال : قد أمنتك . قال : البينة هم الشهود ، واذا شهدوا فليس يحتاج معهم الى شىء ، فما معنى قولك بينة وشهود وأشياء؟ ايش هذه الأشياء الا العى والتغطرش ؟ فضحك ابن الزيات وقال: صدقت ، والبلاء موكل بالمنطق ، وانى لأرى فيك مصطنعا ، ثم وقع له برد ضيعته ، وبأن يطلق له كر حنطة وكر شعير ومائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته ، وصيره من أصحابه واصنعه » .

فأنت ترى من هذه القصة كيف كان الوزير « صاحب التنور » يفسح صدر لكل مظلوم ، ويوطئ كنفه لكل مهضوم، وينتصف لصاحب الحاجة ولو من نفسه ، ويردها عليه أضعافا مضاعفة ، لأن طبيعته القاسية مع ذوى النفوذ والسلطان ، تزخر بالرحمة والعطف على البؤساء والمظلومين ، فهو لايدخر وسعا فى رفع الظلم عنهم ، وتحقيق مطالبهم ، ولو كان الظلم واقعا منه أو من أحد رجاله .

وتستبين رحمة هذا الوزير وعطفه فيما رواه المصدر نفسه من أن غلات أهل البيت لحقت بها آفة فى أيام محمد بن عبد الملك الزيات من جراد وعطش ، فتكلم اليه جماعة منهم ، وشرحوا له ماأصاب غلاتهم من الآفات ، فوجه ببعض أصحابه ناظرا فى أمرهم، وكان فى بصره ضعف ، فكتب اليه محمد بن على البتى :

أتيت أمرا يا أبا جعفر
لم يأته بر ولا فاجر
أغثت أهل البيت اذ أهلكوا
بناظر ليس له ناظر

فبلغه فضحك ورد الناظر ، ووقع لهم بما سألوا بغير نظر .

ويروى التاريخ كثيرا مما يدل على سماحة ابن الزيات وسعة صدره أيام وزارته ، فمن ذلك أن أبا دهمان المغنى كان بمجلس الوزير ، فغافل أبو دهمان الوزير وسرق من مجلسه منديلا

دبقيا ، فجعله تحت عمامته ، والوزير يراه ، فلم يشعره بأنه وقف على ما صنع ، وتركه يخرج بما سرق ، ثم أنشد .

ونديم سارق خاتلني
وهو عندي غير مذموم الخلق
ضاعف الكور على هامته
وطوى منديلنا طي الخرق
يا أبا دهمان لو جاملتنا
لكفيناك مئونات السرق

ولقي الكنجي يوما محمد بن عبد الملك الزيات ، فسلم عليه الكنجي ، وكان الوزير مشغولا فلم يلتفت الى الكنجي حين سلم عليه ، فعز على الكنجي هذا ، وأطلق لسانه في ابن الزيات وقال :

هذا وأنت ابن زيات تصغرنا
فكيف لو كنت يا هذا ابن عطار

وبلغ الشعر محمدا فاعتذر الى جلسائه بأنه لم ير الكنجي ، ولم يستمع الى قول قائلهم بأن الكنجي يجب أن يعاقب على هجائه ، ويحاسب على شعره .

ولقد هجاه كثير من الشعراء بأقذع هجاء ، وأفحش قول ، وكان في مركزه يستطيع ان يكيد لهم ، وأن ينتقم منهم ، ولكنه

عف عن مؤاخذتهم ، وترفع عن الانتقام منهم ، واكتفى بأن يرد لهم الصاع صاعين شعرا وهجاء ونقدا (١) .

ولقد رماه كثير من الرواة باللؤم والدهاء ، ولو صحت هذه التهمة لاصطنع ابن الزيات الحيطة فيما عامل به أولياء العهد أيام المعتصم والواثق ، ولدبر أمر مستقبله حين يئول الأمر الى هؤلاء ، ويصبح فى مقدرتهم الانتقام منه ،ولكنه نهج نهج السياسى المستقيم الذى لا يعنيه الا مصلحة الدولة ، دون أن يلقى بالا الى مصلحته فى قابل الأيام كما ذكرنا من قبل ، هذا عن اللؤم ، أما عن الدهاء فما كان لسياسى كبير كابن الزيات أن يعاب على دهائه وهو صفة السياسى .

وكان ابن الزيات فى غاية الوفاء لأصدقائه ، مالم يعبثوا بمصالح الدولة ، يحسن الظن بهم ويجمل القالة فيهم عند الخلفاء ،ويشيد بهم فى مجالسهم ، فقد روى صاحب الأغانى (٢) عن عبد الله بن العباس الربيعى قال :

« دخل محمد بن الملك الزيات على الواثق وأنا بين يديه أغنيه وقد استغنانى صوتا فاستحسنه ، فقال له محمد بن عبد الملك هذا والله يا أمير المؤمنين أولى الناس باقبالك عليه ، واستحسانك له ، واصطناعك اياه . فقال الواثق : أجل هو ذلك . فقال محمد

---

(١) جاء فى أمراء البيان ج ١ وكان ابن الزيات على علمه وادبه وكونه واحدا فى صناعته مفردا فى براعته لا يخلو من لؤم أحيانا .

(٢) الاغانى ج ٩.

ابن عبد الملك الزيات : ماجمع أحد ما جمعه عبد الله من ظـرف وأدب وصحة عقل وجودة شعر . فقال الواثق : صدقت يامحمد. فلما كان الغد جئت محمد بن عبد الملك شاكرا فقلت له فى أضعاف كلامى ــ وأفرط الوزير أعزه الله فى وصفى وتقريظى بكل شىء، حتى وصفنى عند الخليفة بجودة الشعر ، وليس ذلك عندى ، وانما أنا أعبث بالبيتين والثلاثة، ولو كان عندى شىء بعد ذلك لصغر عن أن يصفه الوزير ، ومحله فى هذا الباب المحل الرفيع المشـهور ــ فقال ابن الـزيات : والله يا أخى لو عرفت مقـدار شـعرك وقولك .

يــا شــادنا رام اذ مــر فى السعانين قتـلى
يقــول لى كيف أصـبحـ ـت كيف يصـبح مثـلى

لما قلت هذا القول . والله لو لم يكن لك شعر فى عمرك كله الا قولك (كيف يصبح مثلى) لكنت شاعرا مجيدا، أنت والله ــ أعزك الله ــ أغزل الناس ، وأرقهم شعرا » .

ومن العجيب ان هذا الرجل الذى يحسن الوزير فيه القـالة ويمدحه أمام الخليفة بأجمل النعوت ، يقول فيه ابن الزيات نفسه: «كان عبدالله بن العباس الربيعى مصطحبا دهره ، لايفوته ذلك الا فى يوم جمعة أو صوم رمضان وكان يكثر المدح للصبوح ، ويقول الشعر فيه ، ويغنى فيما يقوله ، ومن ذلك قوله » :

ومستطيل على الصهباء باكرها
في فتية باصطباح الراح حذاق
فكل شيء رآه خاله قدحا
وكل شخص رآه خاله الساقي.

ومع ذلك يشيد الوزير به وبشعره وعقله أمام الواثق وفاء لحق الصداقة التي تجمع بينهما .

غير أن هناك خلة في وزيرنا تتقد من أجلها مراجل غضبه، وتضطرم كوامن حقده ، تلك هي أن يمس في مكانته الأدبية ، أو ينتقص من قدره منتقص فيعيب عليه أسلوبه وأدبه . يروى أن عبد الله بن الحسن الأصبهاني كان يخلف عمرو بن مسعدة على ديوان الرسائل ، كتب الى خالد بن يزيد بن مزيد « ان المعتصم امير المؤمنين ينفخ منك في غير فحم ، ويخاطب امرأ غير ذي فهم فقال محمد بن عبد الملك الزيات هذا كلام ساقط سخيف ، جعل أمير المؤمنين ينفخ بالزق كأنه حداد ، وأبطل الكتاب . ثم كتب محمد بن عبد الملك بعد ذلك كتابا الى عبد الله بن طاهر ، فقال فيه : وأنت تجري أمرك على الأربح فالأربح ، والأرجح فالأرجح ، لا تسعى بنقصان ، ولا تميل برجحان . فقال عبد الله بن الحسن الأصبهاني : الحمد لله ، فقد أظهر من سخافة اللفظ مادل على رجوعه الى صناعته من التجارة ، بذكره ربح السلع ، ورجحان الميزان ، ونقصان الكيل والخسران من رأس المال . فضحك المعتصم ، وقال :ماأسرع

ما انتصف الاصبهانى من محمد . ولكن ابن الزيات حفظها لعبدالله ابن الحسن الاصبهانى ، وظل يحقد عليه حتى نكبه .

ومع كثرة مشاغل ابن الزيات فى الحكم الا أن هذه المشاغل لم تلهه عن الفن والأدب والعلم ، فكان مجلسه حافلا بالعلماء والأدباء والشعراء من كل لون ، وكان هو مناط الأمل ، ومعقد الرجاء لكل هؤلاء جميعا ، وعلى رأسهم الجاحظ ودعبل الخزاعى وأبو تمام والبحترى والحسن بن وهب وأضرابهم من كبار الكتاب والشعراء ، وكانت صلاته لكل هؤلاء موفورة ، وجوائزه غامرة ، لأنها صلة الفنان للفنان ، وجائزة الأديب للأديب ، فلا غرو أن قصده الشعراء يمدحونه بأروع آيات البيان ، وانتجعه الكتاب يسطرون فى مآثره أبلغ ماكتبوا ، وسنتكلم عن روائع ماقيل فى ابن الزيات حين نتكلم عن الصلة بينه وبين أدباء عصره .

أما صلته بالعلماء فقد اشاد بها صاحب كتاب أمراء البيان (١) حيث يقول : « وكان لابن الزيات عطف خاص على العلماء ، وقد ترجموا له كتبا مهمة فى الطب وغيره ، ومنهم حنين بن اسحق ، نقل له بعض الكتب الى العربية ، وكان الجاحظ منقطعا اليه ، قال ابن أبى أصيبعة : وكان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ فى كل شهر ألفى دينار ، ونقل باسمه عدة كتب ، وكان أيضا مما نقلت له الكتب اليونانية ، وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء : مثل

---

(١) امراء البيان ج ١

يوحنا بن ماسويه ، وجبرائيل بن بختشيوع ، وبختشيوع بن جبرائيل بن بختشبوع ، وداود ابن سرابيون ، وسلمون بن نبان، واسرائيل بن زكريا بن الطيفورى ، وحبيش بن الحسن .. وقد أهدى الجاحظ كتاب الحيوان الى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاه خمسة آلاف دينار ،

وهذا دليل على أن ابن الزيات كان يحيا حياة علمية خصيبة ، فكان يغدق المال على العلماء والنقلة والنساخ بغير حساب ،ويصلهم بمدد غير مقطوع ولا ممنوع ، فهو ابن عصره دون جدال ، ذلك العصر الذى ازدهر بالحضارات والثقافة والمعرفة ، فلم يشأ أن يكون متخلفا عن زمانه ، أو بعيدا عن تيارات الثقافة فيه ، لأنه وهو الوزير الحريص على أموال الدولة كان يؤمن فى قرارة نفسه بأن المال يجب أن يبذل فى هذا السبيل ، لأنه عائد على أمته ، وممهد لها طريق الازدهار والحضارة والرقى ، وان المشاركة فى الحياة العلمية ، ودفع عجلتها الى الأمام فرض على الزعماء والقادة وضريبة على القادرين . من أجل هذا دفع الى صديقه الجاحظ خمسة آلاف دينار حين ألف كتاب الحيوان وأهداه اليه وهذا شبيه بما تقوم به الدول المتحضرة اليوم من منح بعض علمائها الجوائز التقديرية والمالية ، تكريما لهم ، واعترافا بفضلهم على أمتهم ، واشادة بجهودهم ، وهذا ينفى مارمى به من بخل .

وهناك ناحية انسانية فى حياة ابن الزيات عرف بها بين مرءوسيه وهو فى الوزارة ، فكان كثير الحدب على من يعمل

تحت اشرافه من هؤلاء الموظفين والكتبة ، شديد العطف عليهم ، يتفقدهم ، ويتقصى أحوالهم ، ويعودهم اذا مرضوا ، ويواسيهم اذا فجعوا ، ويجاملهم فى أحزانهم وأفراحهم . مرض مرة كاتبه الحسن بن وهب ، فتأخر ابن الزيات عن زيارته كما عوده ،فكتب اليه الحسن بن وهب قصيدة منها :

أيهذا الوزير أيدك الله — وأبقاك لى بقاء طويلا
اننى قد أقمت عشرا عليلا — ماترى مرسلا الى رسولا
ألذنب ؟ فماعلمتسوى الشكر — قرينا لنيتى ودخيلا
أم ملالا ؟ فما علمتك للصا — حب مثلى على الزمان ملولا

فأجابه ابن الزيات على عتابه باعتذار يدل على رقة الطبع، ووفاء النفس ، وصفاء القلب ، حتى مع كاتب من كتبته . فقال:

دفع الله عنك نائبة الدهـ — ـر وحاشاك أن تكون عليلا
أشهد الله ما علمت وماذا — ك من العذر جائزا مقبولا
ولعمرى أن لو علمت فلازمتـ — ـك حولا لكان عندى قليلا
فاجعلن لى الى التعلق بالعذ — ر سبيلا ان لم أجد لى سبيلا
فقديما ما جاد بالصفح والعفـ — ـو وما سامح الخليل الخليلا

أرأيت هذا الشعر الذى يترجم عن أجمل عاطفة انسانية ، تفيض بها نفس انسان ـ بل نفس وزير يملأ اسماع الزمان ـ وهل هناك علاقة أصفى وأرق من هذه العلاقة بين رئيس ومرءوس ..؟ علاقة تشعرك بامتزاج الأرواح ، وزوال الفوارق ، وأخوة العمل المشترك . مما سنفصله فى علاقة ابن الزيات بشعراء عصره .

بقيت مسألة تحتاج الى أن نسلط على جوانبها بعض الضوء فى حياة ابن الزيات لتتكشف لنا معالمها ، وتتضح أبعادها .وهى كيف كان ابن الزيات يقضى أوقات فراغه ــ وهو فى الوزارة ــ فىعصر يفيض بألوان الترف ، ويمتلىء بمغريات الحياة ؟ هل ظل كما كان فى أيام شبابه ــ قبل أن يكون رجلا مسئولا ــ يغشى مجالس اللهو والشراب مع الشعراء والقيان والمطربين ، كما كان يغشى فى نفس الوقت مجالس العلماء والأدباء ، ليستوفى حظه من المتعتين ، أو ابتدأ بعد توليه الوزارة يتحفظ فى لهوه ،ويقتصد فى متعته ، وباتت تلهيه مشاغل الحكم عن مطالب الجسد ؟؟

لقد ذكرت مصادر التاريخ أن ابن الزيات فى أيام وزارته كان معنيا بتعظيم مظاهر الخلافة ، مهتما بما يضفى على مناصب الدولة سمة الوقار والمهابة ، ومن هذه المناصب ــ ومن أولها ــ منصب الوزير ، ولذلك عنى ابن الزيات بأن يضع لهذا المنصب تقليدا جديدا ، وزيا مميزا كما ذكرنا ، وتقول بعض المصادر (١) « ان ابن الزيات كان يراعى عواطف العوام ، ويحاذر مما يهيجهم ، ويقول : ارجاف العوام مقدمة الأحداث . » وليس مما يهيج عواطف العوام ويملأ نفوسهم مرارة مثل عبث الحكام ومجونهم وامعانهم فى الخلاعة والفسق ، وهم الأمناء على مصالح الرعية ، وتزداد المرارة شدة كلما تظاهر الحاكم بعبثه ومجانته أمام أعين

---

(١) امراء البيان ج ١

المحكومين ، حتى تشيع فيه قالة السوء ، يغمز من جوانبه بالتندر والسخرية . ولذلك كان ابن الزيات حريصا ـ منذ ولى الوزارة على ألا يطلع الناس الا على الجانب الجاد من حياته ، أما ساعات صفوه وأوقات متعته فكانت بمعزل عن أعين الرقباء والفضوليين يتخير لها من الأماكن والاوقات مالا ترتقى اليه الظنون .

ومع ذلك هل كان ابن الزيات دائما بمعزل عن مجالس الطرب والغناء التى كان يقيمها الخلفاء فى قصورهم ، ويدعون اليها ندماءهم ومن يشاءون من خاصتهم ؟ يشربون ويطربون ويلهون ؟ وهل كان ما يصطنعه من الوقار والجد يمنعه من تلبية دعوة الخليفة اذا دعاه ؟ اننا نجد ابن الزيات كثيرا ما يدعى الى مجلس الواثق فيلبى دعوة الخليفة ، ويشارك سيده الشراب والطرب والنشوة . وفيما رواه صاحب (۱) الأغانى . عن قصة فريدة المغنية ما يشبع فضولنا من هذه الناحية . وفريدة هى الجارية المفضلة فى بلاط الواثق ، والتى لايسمح لها بالغناء والانشاد الا فى حضرة أخصائه ومريديه . وقد ذكر الأغانى أن ابن الزيات سمع غناء فريدة فى مجلس الواثق وأن نفسه تعلقت بغناء هذه الجارية الفاتنة ، وأنه كان يطرب لأدائها البارع فى الغناء واللحن ، حتى انه كان يحرص على حضور مجلس الواثق كلما دعاه ليسمع غناء فريدة ، ويستخفه الطرب كلما غردت بصوتها الآسر الجميل . ولقد احتلت فريدة فى

---

(۱) الاغانى ج ۲۰

نفس ابن الزيات مكانة لا تقل عن مكانتها فى نفس الواثق ، ولقد سمعها يوما تغنى لأبى العتاهية :

أخلاى بى شجو وليس بكم شجو
وكل امرء مما يصاحبه خلو
أذاب الهوى لحمى وجسمى ومفصلى
فلم يبق الا الروح والجسد النضو

فصاح ابن الزيات ما سمعت قبله ولا بعده غناء أحسن منه !!

وفريدة هذه التى فتن بها ابن الزيات ، وشغف بها الواثق الى أبعد حد ، كانت من جوارى عمرو بن بانة ، ربيت عنده مع صاحبة لها اسمها « خل » وكانت حسنة الوجه ، حسنة الغناء ، حادة الفطنة والفهم ، ثم أهداها عمرو بن بانة للواثق ، فاحتلت فى قلبه مكانة لم تتح لسواها من القيان ، حتى ان الواثق كاد يجن بها شغفا ، وتصور لك قصتها فى الأغانى هذه المكانة التى كانت لها فى قلب الواثق ، كما تصور جانبا من شخصيتها العظيمة التى افتتن بها ابن الزيات ، كما افتتن بأدائها وألحانها .

ولو كان ابن الزيات متبذلا فى شهواته ، منغمسا فى ملاذه ، لانتهز خصومه — على كثرتهم — هذا الاسفاف وتناولوه بهجائهم ونقدهم ، ولو وجدوا فى تاريخ حكمه مغمزا من أى ناحية ماسكتوا عن ذلك على كثرة ما قالوا فى هجائه ، ولذلك يقول الدكتور جميل سعيد فى مقدمة ديوانه : « والذى يبدو لنا من شعره أنه قام بأعباء الوزارة قياما لم يدع فيه مطعنا لأعدائه ، نرى

الشعراء حين يهجونه لا يجدون أكثر من أن يعيروه بأنه تاجر ، وأنه ابن زيات ، وما الى هذا . يقول على بن جبلة معرضا به :

يابائع الزيت عرج غير مرموق   لتشغلن عن الأرطال والسوق

ويقول آخر :

هذا وأنت ابن زيات تصغرنا   فكيف لو كنت ياهذا ابن عطار

وكان ابن الزيات يرد على الشعراء بشعره ــ لا بسلطانه ــ وتجد هذا يدور فى ديوانه » .

هذا هو ابن الزيات ــ الذى ملأ الدنيا وشغل الناس ــ عاش فى وزارته ملء السمع والبصر ، قوى الشكيمة فى الحق ، شديد البطش بالمنحرفين والمفسدين ، معتزا بكرامته ، معتدا بشخصيته ، لا تلين قناته لغامز ، ولا تأخذه فى الحق لومة لائم ، ولا يتملق كبيرا ولا أميرا ، يرى ان الحكم لا يستقيم الا بالحزم الممزوج بالحلم ، ولا يصلح الا بالشدة المشوبة بالعطف : فالحزم والشدة لمن يستحق المعاقبة ، والحلم والعطف للمظلوم والمهضوم وصاحب الحاجة ، ولذلك تحير فيه مؤرخوه ، تناقضت الأقوال فيه ، وذهبت فيه الظنون كل مذهب . مع أن جماع القول فيه أنه المثل الأعلى للحاكم الحازم ، الحريص على سمعة الدولة ومالها وكرامتها والحفى بالعلماء ، الوفى للأصدقاء ، الذى امتزجت فيه شخصية الفنان بالحاكم ، فكان طرازا فريدا فى الحاكمين ، قل أن يجود الزمان بمثله .

الفصل الرابع
مكانته الأدبية

لم يترك محمد بن عبد الملك الزيات ــ منذ أعرض عن حرفة الآباء والاجداد ــ سبيلا للاستزادة من المعرفة الا سلكه ، ولا بابا ينفذ منه بصيص من العلم الاطرقه ، ولا علما من أعلام اللغة والأدب الاحج اليه ، يسعى فى رحابه ، وينهل من فيض معارفه ولا موطنا يدنيه من الشهرة ، ويقربه من المجد الا طار اليه ، ولا فرصة تزيد من ثقافته الا اهتبلها وحرص عليها ــ ومنذ استبان لابن الزيات هدفه ، ووضحت له جادة الطريق ، وتعلقت رغائبه بخدمة البلاط ، وهو دائب السعى لأن يكون أهلا للمركز الذى يصبو اليه ويتعشقه ، وأن يكون فيه المفرد العلم الذى تدركه البصائر ، ولا تخطئه الأبصار .

ولما جاءته الوزارة تسعى فى عهد المعتصم كان الرجل قد استوفى حظه من العلم باللغة والأدب ، واستوى شاعرا مرموقا من شعراء ذلك العهد ، وكاتبا كبيرا من كتابه ، وعلما من أعلام اللغة والنحو ، تتطاول اليه الأعناق ، ويقصده الباحثون عن غريب النحو واللغة .

ولقد رأينا ــ فيما سبق ــ ماذا قال أبو عثمان المازنى حين قدم بغداد عن محمد بن عبد الملك الزيات، فلقد كان جلساء المازنى وأصحابه يخوضون بين يديه فى علم النحو ، فاذا اختلفوا فيما يقع فيه شك ، قال لهم المازنى : ابعثوا الى هذا الفتى الكاتب ــ يعنى محمد بن الزيات ــ واسألوه واعرفوا جوابه ، فيفعلون ، فيصدر الجواب من قبله بالصواب الذى يرتضيه المازنى ، ويوقفهم عليه . هذا هو رأى المازنى (١) فيه ، وهو الذى انتهى اليه علم النحو فى عصره ، حتى لقب بشيخ النحاة ، وكان أول من دون علم التصريف منفصلا عن النحو ، وكان قبل المازنى شائعا فى أبوابه ، وناهيك برأى شيخ النحاة فى وزيرنا محمد بن عبد الملك الزيات ، وهو رأى يدل على سعة اطلاع الوزير وغزارة علمه بالنحو واللغة وفى قصة سؤال المعتصم عن الكلأ ، ــ التى رويناها فيما سبق ــ والتى كانت سببا فى بزوغ نجمه ما يؤيد رأى المازنى فيه . وشبيه بقصة الكلأ ما روى من أن المعتصم سأل مرة جماعة من جلسائه وخاصته من الأدباء والعلماء عن سبب تسمية طاهر بن الحسين ذا اليمينين ، فلم يحر أحد منهم جوابا ، فصرخ المعتصم : على بابن الزيات ، فلما أحضر ، سأله المعتصم فى ذلك قال : انه ذو الاستحقاقين ، استحقاق ما لجده من رزق فى مال الدولة ، واستحقاق ماله فى دولة المأمون

---

(١) توفى سنة ٢٤٩ هـ

والمصادر التى بين أيدينا تجمع كلها على ماكان يتمتع به ابن الزيات من مكانة أدبية كبيرة بين أدباء هذا العصر وشعرائه وكتابه لا لأنه وزير الدولة وصاحب السلطان ، بل لأنه ابن الزيات الأديب الشاعر العالم . وما جلبت عليه الوزارة رفعة فى القدر ، وعلو فى المنزلة الأدبية ـ كما يظن الكثيرون ـ بل العكس كانت سببا فى كثرة حاسديه وخصومه وسبيلا الى النيل من مكانته الأدبية والحط من قدره على ألسنة أعدائه الكثيرين . وفى ذلك يقول صاحب كتاب أمراء البيان [1] : « ان اشتغال ابن الزيات بسياسة الدولة أضاع من مكانته الأدبية ، ودفع اليعقوبى [2] والمسعودى [3] ـ وهما المؤرخان القريبان من عهده ـ الى أن ينتقصا قدره ، فما زادا على أن وصفاه بالكتابة والبلاغة ، كما يوصف آحاد الكتاب ، لا كما يوصف من كان واحدا فى صناعته ، مفردا فى براعته » . وانطلق لسان على بن الجهم ـ يدفعه الحسد والحقد على الوزير ـ الى التهجم عليه والحط من شأنه بقوله :

لعـائن الله متـابعات	مصبحـات ومهجـرات
على ابن عبـد الملك الزيات	عرض شـمل الملك للشـتات
وأنفـذ الاحـكام جائـرات	عـلى كتـاب الله ذاريات
وعن عقـول الناس خارجات	يرمى الدواوين بتوقيعـات
معقـدات كرقى الحيـات	سـبحان من جل عن الصفات

(١) ج ١ .
(٢) توفى ٢٧٨ هـ .
(٣) توفى ٣٤٦ هـ .

بعد ركوب الطوف فى الفرات وبعد بيع الزيت بالحبات
صرت وزيرا شامخ الثبات هرون يابن سيد السادات
أما ترى الامور مهملات تشكو اليك عدم الكفاة

ولم يقتصر الامر على على بن الجهم ، بل تعالت أصوات كثيرة غير صوت بن الجهم ، تنوش ابن الزيات ، وعرض ابن الزيات من كل جانب ـ على ماسيأتى مفصلا عند الكلام على علاقته بشعراء عصره .

ومع ذلك فلم تستطع مصادر التاريخ الأدبى أن تنكر على ابن الزيات مكانته وقدره ، وماكان للحسد والحقد أن يطمسا الحقائق التاريخية ، وان يهدما هذا الطود الشامخ ، أو ينالا من مكانته الأدبية التى استحقها بذكائه ونبوغه وعلمه . فالمسعودى ـ رغم حقده على ابن الزيات لاختلاف مذهبيهما (١) ـ لم ينكر عليه أنه « كان كاتبا بليغا ، وشاعرا مجيدا » . والمرزبانى فى معجم الشعراء يقول : «ان محمد بن عبد الملك الزيات كان أديبا شاعرا» والخطيب البغدادي يذكره فى تاريخ بغداد (٢) بانه « كان أديبا فاضلا ،عالما بالنحو واللغة » ثم يروى عن ميمون بن هرون قصة المازنى التى سبق ذكرها ، ويقول : « وقد ذكره دعبل الخزاعى فى كتابه طبقات الشعراء » ويقول ابن خلكان فى وفيات الاعيان (٣) : « ولقد

---

(١) مروج الذهب ج ٤ . كان المسعودى متشيعا وابن الزيات جهميا .
(٢) ج ٢
(٣) ج ٤ .

سمت بمحمد بن عبد الملك الزيات همته على مايأتى ذكره ، وكان من أهل الأدب الظاهر ، والفضل الباهر ، أديبا فاضلا بليغا عالما بالنحو واللغة .. ثم ذكر رواية ميمون بن هرون أيضا » .

أما أبو الفرج فيقول فى الأغانى (١) : « وكان محمد بن عبد الملك الزيات شاعرا مجيدا ، لايقاس به أحد من الكتاب ، وان كان ابراهيم بن العباس مثله فى ذلك فان ابراهيم مقل ، وصاحب قصار ومقطعات ، وكان محمد شاعرا يطيل فيجيد ، ويأتى بالقصار فيجيد ، وكان بليغا حسن اللفظ اذا تكلم ، واذا كتب » .

وأورد البغدادى فى خزانة (٢) الأدب « أن محمد بن عبد الملك الزيات كان من أهل الأدب ، فاضلا عالما بالنحو واللغة ... ثم أورد قصة المازنى » .

ووصفه الوزير ابراهيم بن المدبر فقال : « ان محمد بن عبد الملك الزيات من ألطف الناس ذهنا ، وأرقهم طبعا ، وأصدقهم حسا ، وأرشقهم قلما ، وأملحهم اشارة ، اذا قال أصاب ، واذا كتب أبلغ ، واذا شعر أحسن ، واذا اختصر أغنى عن الاطالة » .

وهذا عبد الله بن العباس الربيعى يشيد بمكانة ابن الزيات فى الأدب ـ حين أحسن الوزير الرأى فى عبد الله أمام الواثق كما مر ـ فيقول لابن الزيات : « وقد أفرط الوزير

---

(١) ج ٢٠ .
(٢) ج ١ .

ــ أعزه الله ــ فى وصفى وتقريظى بكل شىء حتى وصفنى بجودة الشعر ، وليس ذلك عندى ، وانما أنا أعبث بالبيتين والثلاثة ، ولو كان عندى أيضا شىء من ذلك لصغر عن أن يصفه الوزير ،ومحله فى هذا الباب المحل الرفيع المشهور » .

ولقد سبق أن الفضل بن مروان لما كان وزيرا للمعتصم حاول أن يسقط محمد بن عبد الملك الزيات ، وأن يبعده عن قصر الخلافة، لأنه كان يتفرس فيه الذكاء النادر والعلم ، ولا يحب أن يشاهده فى دار الخلافة ، ولا أن يخالط أهلها ، ويعرف اسمه ورسمه ، فأبت الأقدار الا رفعه ، ولذلك يقول (١) الطبرى : : ان الفضل ابن مروان كان ينكر على ابن الزيات أن يلبس دراعة سوداء وسيفا بحمائل ، ويقول له فيما يقول : انما أنت تاجر فمالك وللسواد والسيف ؟ وقد ذكرنا أن الواثق حين تولى الخلافة ، طلب الى الكتاب جميعا أن يكتبوا بين يديه عهدا الى الأمصار بتوليه الخلافة ، فعجز الكتاب ، ولم يرض الواثق بما كتب بعضهم ، فاضطر الى الالتجاء الى ابن الزيات ــ رغم غضبه عليه ــ فكتب بين يديه ما ارتضاه وأقره ، ونجا بذلك من غضب الواثق ، بل قلده الوزارة ، وأدنى مكانته . وروى صاحب (٢) الأغانى عن محمد بن الفضل الأسود الكاتب ، قال حدثنى ابن قريش بن أنس عن أبيه قال : دخلت على الواثق فقال لى :

---

(١) ج ١٠ .
(٢) ج ٩ .

يا أبا قريش ، أخرج رقعة من تحت المصلى ، فمددت يدى ، فأخرجت الرقعة ، وقرأتها وقلت : يا أمير المؤمنين ، رقعة حسنة أولها تشوق ، وأوسطها استعتاب ، وآخرها استبطاء ، واذا آخر الرقعة :

ان يكن حبلك من حبلى وهى
فالى شوقى يكون المنتهى
لم يذكرنيك خطب حادث
انما يذكر من كان سها

وكانت الرقعة من محمد بن عبد الملك الزيات . فقال الواثق: هذا هو ابن الزيات الذى يلومنى الناس على حبه . ومن أجل هذه المكانة التى كان يحتلها ابن الزيات فى نفس الواثق لأدبه وعلمه ومعرفته أصدر الواثق أمرا بألا يرى أحد من الناس محمد ابن عبد الملك الزيات الا قام له ، اجلالا وتعظيما لمكانته ، وكان أمر الواثق مثار كثير من المشاكل بين ابن الزيات وبين القاضى أحمد بن أبى دواد على ما سيأتى تفصيله ، ومن أجل هذه المكانة أيضا كان محمد بن عبد الملك الزيات هو الوزير الوحيد الذى يعقد للولاة فى دار الخلافة ، فقد روى أنه عقد لاسحق ابن ابراهيم بن أبى خميصة مولى بنى قشير على اليمامة والبحرين وطريق مكة مما يلى البصرة فى دار الخلافة ، ولم يذكر التاريخ أن أحدا عقد لأحد فى دار الخلافة الا الخليفة غير محمد ابن عبد الملك الزيات .

وهذا رأى عميد الكتاب فى عصر ابن الزيات ، وهو رأى دار فى أغلب كتب الأدب ، لأنه رأى الجاحظ . فقد روى ابن رشيق فى عمدته عن الجاحظ قوله فى ابن الزيات وكاتبه الحسن بن وهب ما يأتى : « طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لا يحسن الا غريبه ، فرجعت الى الأخفش فوجدته لا يتقن الا اعرابه ، فعطفت على أبى عبيدة فوجدته لا ينقل الا ما اتصل بالأخبار ، وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت الا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات » وعلق الصاحب على كلام الجاحظ بقوله : « فلله أبو عثمان ! لقد غاص على سر الشعر ، واستخرج أرق من السحر » ثم عقب ابن رشيق على هذا بقوله : « وسأذكر من أشعار الكتاب قطعة يظهر فيها مرماهم ، ويستدل على مغزاهم ، ويعرف حسن اختيار الجاحظ فيما ذهب اليه من تفضيلهم ، ويشهد لى بجودة الميز ، وفرط التثبت والانصاف ، ان شاء الله تعالى .. واختار ابن رشيق وأحسن الاختيار ، وعقب على اختياره بقوله : ولو حاولت أن أذكر من علمت من شعراء الكتاب سوى من ذكرت لبعد الأمد ، وطالت الشقة ، واحتجت الى أن أقيم لهذا الفن ديوانا مفردا ، لكننى عولت على ابن الزيات وابن وهب ، لاحالة الجاحظ فى الفضل عليهما . » .

فهناك ــ كما قلنا ــ اجماع على أن ابن الزيات كان كاتبا شاعرا أديبا عالما .. وكان فوق ذلك بليغا حسن اللفظ اذا تكلم

واذا كتب كما يقول الأغانى ، وكان اذا كتب أبلغ ، واذا شعر أحسن ، واذا اختصر أغنى عن الاطالة كما يقول ابراهيم بن المدبر ، وكان يتمتع فى عصره بمكانة أدبية مرموقة ، جعلته مناط الأمل لكثير من كبار الشعراء والكتاب .

على أن هناك مسألة تستحق أن نقف عندها طويلا .. وهى تلك القصائد التى قالها الشاعران الكبيران أبو تمام والبحترى يمدحان فيها محمد بن عبد الملك الزيات ، فهما يشيدان فى هذه المدائح ببلاغة الوزير وقوة قلمه ، وبراعة نثره ، دون أن يشيرا فى مدائحهما الى الاشادة بشاعريته ، فيقول أبو تمام :

لك القلم الأعلى الذى بشباته
ينال من الأمر الكلى والمفاصل
لعاب الأفاعى القاتلات لعابه
وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل

ويقول البحترى :

قد تفننت فى الكتابة حتى
عطل الناس فن عبد الحميد
فى نظام من البلاغة ما
شك امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا
حك فى رونق الربيع الجديد

مشرق فى جوانب السمع ما يخـ
ـلقه عوده على المستعيد
ما أعيرت منه بطون القراطيـ
ـس وما حملت ظهور البريد

ثم يمضى الشاعران بعد وصف قلمه وبلاغته التى عطلت نثر عبد الحميد وفنه فى مدح الوزير بحسن السياسة والدهاء ، ومعالجة المشكلات بالحزم على ما سيأتى مفصلا فى علاقة ابن الزيات بالشاعرين . فكأن شاعرية ابن الزيات التى أجمعت عليها مصادر التاريخ الأدبى لم تكن تستحق من الشاعرين الكبيرين تسجيلا ، كما استحق المدح منهما بنثره وبلاغته وسياسته ، أيرجع ذلك الى أن ابن الزيات قد طغى نثره على شعره ، وأزرى به ، فاحتل الصدارة بين كتاب عصره ، ولم يبلغ بشعره شأو شعراء ذلك العصر ، أم لأن الوزارة من مستلزماتها الكتابة والبلاغة ، دون أن يكون الشعر من مستلزماتها ؟ أم لأن الشاعرين كانا ينظران الى شعر ابن الزيات بمقياس شاعريتهما ، فوجداه دون مرتبتهما قصيدا وشعرا ؟؟ اننا نرجح أن الشاعرين مدحا فى ابن الزيات بالصفة التى تغلب على وزراء ذلك العهد وهى صفة الكتابة ، فقد اشتهر أسلافه فى هذا المنصب بما كانوا يحسنونه من الكتابة بين يدى الخليفة ، حتى جاء ابن الزيات فلم يقل عن أسلافه شأوا فى هذا المضمار ، فجاءت مدائح الشاعرين الكبيرين لابن الزيات بالصفة التى يشرف بها الوزير ، ويعلو بها قدره فى

نظر الخلفاء دون أن يتعرضا فى مديحهما لشاعريته التى أجمعت عليها مصادر التاريخ الأدبى .

يقى بعد ذلك رأى الجاحظ فى شــعر محمــد بن عبد الملك الزيات وزميله ــ أو كاتبه ــ الحسن بن وهب ، وهو رأى قاطع فى أن الجاحظ لم يظفر بعلم الشعر الا عند هذين الكاتبين ، فهل كان الجاحظ مصيبا فى هذا الحكم الذى أصــدره على شــعر ابن الزيات ؟ دون أن يتعرض لمكانته الأدبية فى الكتابة والنثر ؟؟ اننا نخشى أن يكون للعلاقة الشخصية بين هذين الــكاتبين وبين الجاحظ أثر فى صدور هذا الحكم ، فالمعروف ان الجاحظ كان أثيرا لدى ابن الزيات ، وملازما له ــ كما سيأتى الــكلام على ذلك ــ وأن صلات ابن الزيات وابن وهب لم تنقطع عن الجاحظ طول اقامته ببغداد ، ولكن يبقى بعد ذلك سؤال ، لماذا لم تدفع هذه العلاقة الشخصية بالجاحظ التى التنويه بمكانتهما بين الكتاب ــ ومحلهما فيها لا ينكر ــ كما نوه بذلك الشاعران الــكبيران أبو تمام والبحترى فى مدائحهما لابن الزيات دون أن يتعرضــا لمدحه بما قال من شعر .؟ ولماذا يحكم الجاحظ هذا الحكم على ابن الزيات وابن وهب فى عصر امتلأ بكبار الشعراء ، وامتــاز بفحولهم ، من أمثال مسلم بن الوليد (٢٠٩ هـ) وأبى العتاهيــة (٢١١ هـ) وأبى تمام (٢٣٢ هـ) ودعبل الخــزاعى (٢٤٦ هـ) وعلى بن الجهم (٢٤٩ هـ) والبحترى (٢٨٤ هـ) وغيرهم ممن كانوا يعاصرون ابن الزيات ، وكانوا أكبر منه مكانة فى الشعر ،

وأرسخ قدما دون مراء ؟؟ هناك احد احتمالين : اما أن يكون الجاحظ قد اعترف لصديقه ابن الزيات بالامتياز فى الشعر لأن امتيازه فى الكتابة أمر مفروغ منه ، ولذلك ولى الوزارة لأنه كان من كبار الكتاب ، واما لأن الجاحظ بوصفه كبير كتاب عصره ، وأحد المجددين فى أسلوب الكتابة ، لم يكن يرى من بين فرسان الكتابة من يدانيه ، أو يصل الى مكانته ، فسلك ابن الزيات فى عداد الشعراء ، واعترف له بالسبق فى هذا المضمار ، أما الكتابة فهو فارسها المعلم ، وزعيمها الذى يدين له الكتاب بالأسبقية والفضل . ومع ترجيحنا للاحتمال الأول فقد يجوز أن يكون الجاحظ قد عنى بقوله « علم الشعر » نقد الشعر ومعرفة غثه من ثمينه ، والحكم عليه بالجودة أو الرداءة ، ويدعم هذا الفرض أن ابن الزيات يمتاز من هذه الناحية بذوق أدبى فى نقد الشعر ، والحرص على ألا يسمع من الشعر الا أجوده ، حكى صاحب (١) الأغانى « ان الشعراء اجتمعوا يوما على باب المعتصم ، فبعث اليهم محمد بن عبد الملك الزيات ، ان أمير المؤمنين يقول لكم : من كان منكم يحسن أن يقول مثل قولى النمرى (٢) فى الرشيد :

خليفة الله أن الجود أودية
أحلك الله منها حيث تجتمع

---

(١) ج ٢٠
(٢) منصور النمرى شاعر عربى أصله من الجزيرة ، وقدمه البرامكة للرشيد فقال فى مدحه شعرا كثيرا

من لم يكن بأمين الله معتصماً
فليس بالصلوات الخمس ينتفع
ان أخلف القطر لم تخلف مخايله
أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

فليدخل ، والا فلينصرف . فقام محمد بن وهيب فقال : فينا من يقول مثله ، فسأله محمد بن عبد الملك الزيات ، وأى شىء قلت ؟ فقال :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتهم
شمس الضحى وأبو اسحق والقمر
تحكى أفاعيله فى كل نائبة
الغيث والليث والصمصامة الذكر

فطرب ابن الزيات لشعره ، وأمر بادخاله على المعتصم ، وأحسن جائزته » .

وقال أحد الرواة : « سمعت محمد بن عبد الملك الزيات يقول : أشعر الناس طرا الذى يقول :

وما أبالى ، وخير القول أصدقه
حقنت لى ماء وجهى أو حقنت دمى

فأحببت أن استثبت ابراهيم بن العباس ، وكان فى نفسى أعلم من محمد وآدب ، فجلست اليه وكنت أجرى عنده مجرى الولد ، فقلت له : من أشعر أهل زماننا هذا ؟ فقال الذى يقول :

مطر أبوك أبو أهلة وائل

ملأ البسيطة عدة وعديدا

نسب كأن عليه من شمس الضحى

نورا ومن فلق الصباح عمودا

ورثوا الأبوة والحظوظ فأصبحوا

جمعوا جدودا فى العلى وجدودا

فاتفقا على أن أبا تمام أشعر أهل زمانه » . وما جاء هذا الاتفاق عفوا ، وانما هو عن بصر بنقد الشعر ، وادراك ذوقى بفنونه .

وبلغت ملكة النقد عند ابن الزيات انه كان يرد كل شيء الى مصدره من أقوال الشعراء ، حكى (١) ابن خلكان : «أن أبا حفص الكرمانى ـ كاتب عمرو بن مسعدة ـ كتب الى محمد بن عبد الملك الزيات : أما بعد ، فانك ممن اذا غرس سقى غرسه ، واذا أسس بنى أسه ، ويجتنى ثمرة غرسه ، وبناؤك فى ودى قد وهى وشارف الدروس ، وغرسك عندى قد عطش وأشفى على اليبوس ، فتدارك بناء ما أسست ، وسقى ما غرست . فقال ابن الزيات : مازاد الكرمانى على أن نقل الى قول أبى نواس يمدح البرامكة :

ان البرامكة الكرام تعلموا

فعل الجميل وعلموه الناسا

---

(١) وفيات الاعيان ج ٤

كانوا اذا غرسوا سقوا واذا بنوا
لا يهدمون لما بنوه أساسا
واذا هم صنعوا الصنائع فى الورى
جعلوا لها طيب البقاء لباسا
فعلام تسقينى ، وأنت سقيتنى
كأس المودة ، من جفائك كاسا

ولما مدحه أبو تمام بقصيدته التى مطلعها :

ديمة سمحة القياد سكوب
مستغيث بها الثرى المكروب

قال له ابن الزيات : يا أبا تمام ، انك لتحلى شعرك من جواهر لفظك ، وبديع معانيك ، ما يزيد حسنا على بهى الجواهر فى أجياد الكواعب ، وما يدخر من جزيل المكافأة الا ويصغر عن شعرك فى الموازاة . وهذا الرأى لا يصدر الا عن ناقد بصير بفنون الشعر ، وما استحدثه أبو تمام فى الشعر العربى من ضروب المحسنات اللفظية ، والعناية بها .

فاذا كان مارمى اليه الجاحظ من « علم الشعر » هو نقد الشعر ، ومعرفة فنونه ، والبصر بأساليبه المختلفة ، فان الصواب لم يجانبه فيما رمى اليه ، أما اذا كان رأيه أن مكانة ابن الزيات وابن وهب فى عالم الشعر تزرى بمكانة الفحول من شعراء عصرهما ، فاننا نستميح الجاحظ فى مخالفته فى ذلك ،

ونستأذنه فى أن نضع شعر ابن الزيات فى ميزان النقد الأدبى لنعرف مكانه بين الشعراء .

وقبل أن نرجع الى ديوان محمد بن عبد الملك الزيات لدراسة شعره نستعرض رأيين من آراء الأدباء فى هذا الشعر ، أحد الرأيين قديم ذكره صاحب الأغانى ، والآخر رأى الدكتور جميل سعيد الذى أشرف على طبع ديوان ابن الزيات وجمعه ، وقد ذكر هذا الرأى فى المقدمة التى صدر بها الديوان .

أما الرأى الأول فقد ورد فى (١) الأغانى « اجتمعت أنا وهرون بن محمد بن عبد الملك الزيات وابن برد الخيار فى مجلس عبيد الله بن سليمان قبل وزارته ، فجعل هرون ينشد من أشعار أبيه محاسنها ، ويفضلها ويقدمها ، فقال له ابن برد الخيار : ان كان لأبيك مثل قول ابراهيم بن العباس :

أسد ضار اذا هيجته
وأب بر اذا ما قدرا
يعرف الأبعد ان أثرى ولا
يعرف الأدنى اذا ما افتقرا

ومثل قوله :

تلج السنون بيوتهم وترى لهم
عن جار بيتهم ازورار مناكب

(١) الاغانى ج ٢٠

وتراهم بسيوفهم وشفارهم
مستشرفين لراغب أو راهب
حامين أو قارين حيث لقيتهم
نهب العفاة ونهزة للراغب

فاذكره وافخر به ، والا فأقلل من الافتخار والتطاول بمالاطائل فيه ، فخجل هرون » .

فهذا رأى معاصر لابن الزيات ، وفى مقارنة بينه وبين أحد شعراء الكتاب وهو ابراهيم بن العباس الصولى ، وقد استبان من هذه المقارنة فضل ابراهيم بن العباس على ابن الزيات فى الشعر ، وذلك فى رأى ناقد خبير كابن برد ، حتى ان هرون ابن محمد بن عبد الملك أخجلته المقارنة ولم يحر جوابا .

وأما رأى الدكتور جميل سعيد الذى نشر ديوان الوزير محمد بن عبد الملك الزيات وأشرف على نشره فهو : « وبعد ، أفكان ابن الزيات من المكانة الشعرية بالمحل الذى ذكره به الجاحظ والصاحب وابن رشيق ؟ ان اشعاره التى فى ديوانه هذا لا نراها تضعه فى مصاف الشعراء المطبوعين ، وقد لج الهجاء بينه وبين على بن جبلة ، والقارىء حين يقرؤه يجد الفرق واضحا بين ابن الزيات ، وبين الشاعر المطبوع على بن جبلة ، على أننا نستطيع أن نقول كما قال أبو الفرج : « كان محمد بن عبد الملك الزيات شاعرا مجيدا ، لايقاس به أحد من الكتاب » نعم ، نستطيع أن نقول انه اشعر الكتاب ، كما قيل ان ابن دريد اشعر الشعراء،

أما أن نميزه على الشعراء المطبوعين ، أمثال جرير وابى نواس والبحترى ومن اليهم ، فذلك مانستكثره عليه . على انى أشهد أن الرجل شاعر لايبارى اذا هاجت عواطفه ، وان قصائده فى رثاء ام ابنه عمر تعد من أحر اشعار الرثاء وأصدقها . ومن هذا الذى لايهتز لقوله :

يقول لى الخلان: لوزرت قبرها فقلت: وهل غير الفؤاد لها قبر؟
على حين لم أحدث فاجهل قدرها ولم أبلغ السن التى معها الصبر

أو لقوله فى نونيته المشهورة :

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بعيد الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنها غير أمه يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدا فى الفراش تجنه بلابل قلب دائم الخفقان
فلا تلحيانى ان بكيت فانما أداوى بهذا الدمع ما تريان

واذا كان من المعروف أن كثيرا من شعراء العربية يجيدون اللعب على وتر واحد من أوتار العواطف ، فالاخطل مثلا يجيدمدح الملوك ، وأبو نواس يجيد اذا قال فى الخمر ، وأبو العتاهية يجيد فى الزهد .. اذا كان المعروف هذا ، فاننا نستطيع أن نقول : ان ابن الزيات شاعر لايجارى حين يقول فى الرثاء ، وما يتصل به من المعانى الحزينة ، ونحن بهذا نقر ماجاء من الثناء على شاعريته ، كيف لا وهو القائل :

ألم تعجب لمكتئب حزين خدين صبابة وحليف صبر
يقول اذا سألت به : بخير وكيف يكون مهجور بخير ؟

واشعاره الوجدانية كلها من هذا الجيد ، الذى يظهر فيه الصدق الأدبى ، وتنضح عواطفه الحزينة على القارىء فيشارك ابن الزيات شعوره الحزين الذى نظم به شعره » .

هذا هو رأى ناشر الديوان فى شعر ابن الزيات ، وهو أقرب ما يكون الى الصواب اذا استعرضت اشعار الشاعر التى وردت فى ديوانه كما سيتضح ذلك . والديوان الذى بايدينا والذى حققه الدكتور جميل سعيد ونشره بمعاونة وزارة المعارف العراقية يقع فى نحو مائة صفحة ، وهو منقول عن نسخة خطية عثر عليها الناشر فى مكتبة تيمور باشا بدار الكتب المصرية . ويذكر الناشر مابذله من جهد فى تحقيق هذا الديوان اذ يقول : « قد بادرت الى نسخ هذه النسخة الخطية ، فاذا هى قد حشيت بالأغلاط حشوا ، وزاد فى عسر الاهتداء الى الصواب منها ، اننى كنت أقرأ فلا أدرى أين موطن التصحيف والخطأ ، لأن الكاتب قد رسم الحروف واضحة حتى لم يدع مجالا لشك القارىء فى كلمة بذاتها وهكذا رأيت هذه الكتابة الجميلة الواضحة قد أشاكت طريق الصواب على ، ولطالما تمثلت ببيت ابى الطيب ، وأنا اجيل النظر فى الفاظ البيت ، لأرى موطن التحريف والمسخ فيه ، وأعجب من شدة الوضوح تكون شدة فى الغموض :

أخذ الجليد بها على مسالكى فكأنها لبياضها سوداء

وعلمت بوجود نسخة أخرى بدار الكتب المصرية ، وطمعت أن اقارن النسخة التى كتبتها عليها ، وحصلت ــ وأنا فى بغداد ــ على

نسخة مصورة منها ، فاذا هي صورة حرفية للنسخة التي عندي ، وكأن الناسخ قد كتب نسختين ، دفع احداهما الى دار الكتب ، ودفع الأخرى الى مكتبة تيمور باشا . على أني لم أيأس من معرفة النسخة القديمة التي أخذت عنها هاتان النسختان ، وقد بحثت فيما وقع بيدي من فهارس أمهات المتاحف والمكتبات في العالم ،وآسف أن أقول انني لم أهتد الى نسخة من ديوان ابن الزيات فيها ، وترددت في نشرها ، ثم رأيت نشرها وتحقيقها بما في الطاقة والوسع أفضل من بقائها في زوايا النسيان ، وقد اصلحت منها مااستطعت وأشرت الى النص كما هو موجود في الاصل ، وتركت مالم أهتد الى وجه في اصلاحه على حاله ، عسى ان يكشف الزمن عن نسخة أخرى من ديوان هذا الشاعر ، يهتدي بها الى مواطن الصواب في النسخة التي بين يدي القاريء . وأمر آخر في النسخة اشير اليه ، هو أن هذا الشعر لايمثل حياة ابن الزيات كاملة ، وربما كان له شعر غير هذا لم يجمعه جامعه ، هذا من جهة ومن جهة اخرى فاني وجدت بعض القصائد لم تنسجم أبياتها ، ويخيل الى أنها سقطت منها ابيات احدثت هذا الخلل ، أو أنها قد أخل بترتيبها وهذا مانرجو أن يكشف عنه أيضا ، حين نعثر على نسخة قديمة من ديوان هذا الشاعر » .

ونحن نميل الى ماذكره الدكتور جميل سعيد من أن ماورد في الديوان لا يمثل كل ماقاله ابن الزيات من شعر في حياته ، بدليل اننا نجد في الأغاني وغيره من كتب الأدب بعض أبيات متفرقة

ومنسوبة الى محمد بن عبد الملك الزيات ، ومع ذلك لم ترد فى ديوانه الذى أشرف الدكتور جميل سعيد على تحقيقه ونشره ، مما يدل على أن لابن الزيات شعرا كثيرا لم يضمه هذا الديوان بين دفتيه ، كما أن هناك اختلافا كبيرا بين بعض قصائده فى الديوان والتى روتها هذه المصـــادر .

ومع ذلك سنعتمد على هذا الديوان فى نقد شعر ابن الزيات وتقييمه ، ومقارنته بشعراء عصره ، لنرى الى أى مدى يصـــدق حكم الجاحظ على شعر محمد بن عبد الملك الزيات .

لقد تناول ابن الزيات بشعره كثيرا من الأغراض التى خاض فيها كثير من شعراء عصره ، أجاد فى بعضها ، وأسف فى بعضها الآخر ، ويبلغ ابن الزيات غاية الجودة حين ينبع الشعر من عاطفـــة جياشة تفيض بها نفسه ، أو يصدر عن انفعال نفسى بالغرض الذى يقول فيه ، فهو حين يحس الفجيعة فى فقد أم ولده ، ويتأثر بمنظر ابنه عمر ، وهو يبحث عن أمه فى كل مكان فلا يجدها ، وينادى عليها فلا تجيب ، تهتاج شاعريته الى الحد الذى ينطلق شعره فيه زفرات متقدة ، ونفثات ملتهبة ، تبعث الأسى ، وتثير الشجن ، وقد اتخـــذ كثير من النقاد هذه القصيدة الحزينة مقياسا على شاعرية ابن الزيات ، وقوة عارضته فى الشعر ، حتى عدوها من عيـــون قصائده ، وماذلك الا لصدق العاطفة فيها ، وما سرى بين كلماتها من احساس عميق بالألم ، وشعور بالفجيعة ، ومثل هذه القصيدة فى الجودة وصدق الاحساس كل ما صـــدر عن ابن الزيات من

عاطفة حقيقية ، ونستطيع ان تتبين ذلك فى كثير من مقطعاته التى صدح بها الشاعر عن احساس صادق ، سواء أكان ذلك فى الرثاء أم الغزل أم الخمريات أم السخرية أم الندم .

وقد قدمنا صورة من هذه النماذج عند الكلام على نشأته ، ولا بأس من أن نورد بعض النماذج الأخرى التى ننصف بها شاعرية ابن الزيات قبل أن نتكلم عن رديء شعره . فهو فى غزله الرقيق ، الصادر عن شعور صادق ، نراه قريبا من شعراء عصره ، بل يفوقهم أحيانا فى بعض قصائده التى تمتاز بالحرارة والعمق ووصف خلجات النفس ، ومن هذا النوع تلك القصيدة التى ذكرناها عند الكلام على نشأته ، والتى مطلعها :

ألا من عذير النفس ممن يلومها ، على حبها جهلا . ألا عذيرها

وهى من عيون غزله ، وأرق قصائده . ومن ابياتها التى لم تذكر فيما سبق .

تذكرت أياما تولى سرورها ... فدر لعينى عند ذاك درورها
فبت كأنى بالنجوم موكل ... أقلب فيها مقلتى وأديرها

ومن غزله الرقيق قصيدته التى مطلعها :

لم يزدنى العذل الا ولعا ... ضرنى أكثر مما نفعا

ومن شعره الجيد فى وصف مجلس شراب :

انف بالخمر نعسة المخمور ... واسق يحيى كبيرنا بالكبير
من سلاف تدير طوقا من الدر ... عليها مفصلا بشذور

عمرت والزمان فى حجر أم فضلتها بالبر والتوقير
لست فى وصفها ببالغ شىء غير أنى أقر بالتقصير
فاذا الكاس أقبلت فبنوعين سلاف معتق وسرور
غير ان السلاف تبصره العين وهذا يرى بعين الضمير

وهذا الشعر مع مقطوعته التى سبق ذكرها فى وصف الخمر عند الكلام على نشأته يدنيه من أفق ابى نواس ، ومسلم بن الوليد فى خمرياتهما ، ووصف مجالس الشراب ، وان كان النواسى لم يلحق به فى هذا الباب لاحق .

ويمتاز ابن الزيات بشعره الساخر الذى داعب به كثيرا من أصدقائه واخوانه مداعبة تدعو الى الضحك من هذه الصور التى رسمها بريشته البارعة ، حتى اعتبره بعض النقاد رائدا فى هذه الناحية من الشعر ، واماما من أئمة السخرية ، وقد ارتاد هذا اللون من الشعر ابن الرومى الذى نبغ فيه من بعده ، فكان لابن الزيات فضل السبق فى هذا النوع من الشعر ، وقد سبق أن ذكرنا « أنفيات » عيسى بن زينب عند الحديث على نشأة ابن الزيات ، وغيرها من الشعر الهزلى الذى يعتبر بحق رائده .

ولابن الزيات فى الاخوانيات شعر جيد ، يضعه فى مصاف كبار الشعراء . ومن ذلك قوله فى قصيدته التى بعث بها الى الحسن بن وهب ، حين كتب اليه الحسن يستهديه بعض النبيذ وهو فى بلاد الروم ، فأرسل اليه مع هذا الشعر ما طلب :

لم تلق مثلي صاحبا أندى يدا وأعز جودا
أسقى الصديق بمنزل لم يرو فيه الماء عودا
صهباء صافية كأ ن على جوانبها العقودا
فاذا استقل بشكرها أوجبت بالشكر المزيدا
وأمن حيث أمن لا حصرا بذاك ولا بليدا
واذا خشيت على الصنـ يعة بالتقادم أن تبيدا
أنشأت ذكر صنيعتي فرددتها غضا جديدا
ومدحت نفسي مبديا بالقول فيها أو معيدا
خذها اليك كأنما كسيت زجاجتها عقودا
واجعل عليك بأن تقـ ـوم بشكرها أبدا عهودا

وكذلك قصيدته التي أرسلها الى الحسن بن وهب يعتذر فيها من عدم زيارته له في مرضه ـ وقد مر ذكر بعضها عند الكلام عن محمد بن عبد الملك الزيات في وزارته ـ ومن أبياتها التي لم نذكرها قوله :

انني ارتجي وان لم يكن ما كان مما نقمت الا جليلا
ان أكون الذي اذا أضمر الاخـ ـلاص لم يلتمس عليه كفيلا
ثم لا يبذل المودة حتى يجعل الجهد دونها مبذولا
فاذا قال كان ما قال اذ كا ن بعيدا من طبعه أن يقولا

وله فى الزهد ابيات تدنيه من ابى العتاهية فى زهده ، صدرت عن فهم صحيح لهذه الحياة ،وادراك لتقلباتها المختلفة ، فهو يقول فى ذلك عن تجربة وشعور بواقع الحياة . اسمع اليه حين يقول :

ربت دار بعد عمرانها — أضحت خلاء مابها آهل
لم تدخل البهجة دار امرىء — الا ويهدمها أسى داخل
ما يأمن الدنيا وأيامها — بعدى الا أنوك جاهل

ومثل ذلك ما قاله أثناء نكبته :

سل ديار الحى ما غيرها — وعفاها ومحا منظرها
انها الدنيا اذا ما انقلبت — صيرت معروفها منكرها

على أن الجيد فى شعر ابن الزيات لايكاد يطغى على رديئه ، ففى الديوان كثير من الشعر الذى يظهر فيه اثر الصنعة والتكلف والبعد عن العاطفة ، والاغراق فى الاسفاف ، حتى لتحس بأن ابن الزيات لايقول شعرا نابعا من شعوره واحساسه ، وانما هو ينظم كلاما موزونا مقفى ، لاينفذ الى قلب سامعه ، ولا يحرك شعور قارئه ، لأن الشاعر نفسه لم يتأثر بما قاله ، ولم ينفعل به ، بل ربما اكره على نظمه لمناسبة من المناسبات ، وهذا الشعر يدور فى ديوان ابن الزيات فى بعض الاغراض التى لايدفع اليها شعور ذاتى ، ولا عاطفة نفسية ، تلمسه فى بعض مدائحه للخليفة ، أو وصفه لبعض المشاهد التى لم تتأثر بها نفس الشاعر ، أو فى خطرة من الخطرات

العابرة التى يجانبها صدق الاحساس . ولن نستطيع أن نستقصى كل النماذج الرديئة فى شعر ابن الزيات ، ولكننا نعرض عليك بعضا منها ، وفيه غناء عن كثير مما ورد فى ديوانه .

فهو يمدح الواثق بقصيدة من هذا اللون الردىء نكتفى منها بما يأتى :

خليفة الله طالت عنك غيبتنا   عشرا وعشرا وعشرا بعدها أخرا
فالعبد يشكو الى مولاه وحشته   لو كان بالعبد صبر بعد ذا صبرا

ومن هذا الشعر قصيدته التى مدح بها المعتصم فى فتح عمورية والتى مطلعها :

ماللغوانى من رأين برأسه   يققا (1) مللن وصاله وشنينه

وهى قصيدة طويلة ملأها بالالفاظ الغريبة الحوشية ليدل على الخليفة بمحصوله اللغوى ، دون رعاية لما يتطلبه الشعر من صدق الاحساس ، والتأثر بما يصفه من انفعالات ، وأين هذه القصيدة من قصيدة أبى تمّام ، التى قالها فى نفس الغرض ، والتى مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

فهو لا يبدأ قصيدته بالتشبيب والغزل كما فعل زميله ابن الزيات ، ولا يغرب فيها اغرابه ، ولكنه ينتزع من الحرب فى

---

(1) اليقق : البياض

عمورية صورة صادقة ، فيبدؤها بالسيف وأثره فى المعارك والانتصارات . ومن ردىء شعره قوله للحسن بن وهب .

وجونا فى التجاوز أن تصيرا   الى بعض التعابث والغفار
يزكى ذاك عند الوصف هذا   وذا من نحو صاحبه يدارى

وبعد ، فما قول الجاحظ - يرحمه الله - فى هذا الشعر الردىء الذى يكاد يبلغ اكثر من نصف الديوان ويكاد يطغى على الشعر الجيد فى شعر ابن الزيات ؟ وما رأيه فى هذا النظم الذى أوردنا منه هذه النماذج ، والذى لانرى فيه اثرا للشاعرية التى نراها فى بقية أشعاره ؟ هل نقول ان الجاحظ لم يدرك من شعر ابن الزيات الا أجوده ، ولم ينقل اليه الا أصدقه ، فقال ما قال ؟ أو نعود الى ماقلناه من قبل من أن الجاحظ لم يقصد من قوله « علم الشعر » الا نقد الشعر والبصر بدروبه ومسالكه ؟ أونقول كما قال الدكتور جميل سعيد ناشر الديوان من أن حكم الجاحظ لا ينصب الا على شعراء الكتاب دون غيرهم من فحول الشعراء الذين لمعت اسماؤهم فى سماء الشعر فى عصره ، من أمثال ابى نواس ، وابى تمام ، والبحترى ، أو نرجح ماسقناه من أن الجاحظ قد تأثر فى هذا الحكم بصداقته الشخصية لمحمد بن عبد الملك الزيات ، وللحسن بن وهب ، وحالت جوائزهما الكثيرة بينه وبين قول الحق ؟؟

أيا كان الرأى فنحن لانستطيع ان نقبل حكم الجاحظ على علاته دون ان نناقشه ، ونتأوله على رأى من الآراء التى أجملناها،

فما كان لشعر محمد بن عبد الملك الزيات ان يعلو على شعر شعراء ذلك العصر ، أو يطمس ماقالوه ، أو يزرى بهذه الروائع التي تعتبر مفخرة للشعر العربي في العصر الذى نؤرخه .

بقيت بعد ذلك مكانة ابن الزيات في الكتابة والنثر ، وأين نضعه بين كبار كتاب عصره ؟ لقد أجمعت المصادر التى ذكرناها في أول هذا الفصل على أن محمد بن عبد الملك كان كاتبا بليغا ، وشاعرا مجيدا ، وأديبا فاضلا عالما بالنحو واللغة ، وأنه من ألطف الناس ذهنا ، وأرقهم طبعا ، وأصدقهم حسا ، وأرشقهم قلما ، وأملحهم اشارة ، اذا قال أصاب ، واذا كتب أبلغ . فلم يغفل مصدر من هذه المصادر وصفه ببلاغة الكتابة ، ورقة العبارة ، وطلاوة الأسلوب ، ولكن بم كان يمتاز نثره ؟ ان هذا يقتضينا أن ننظر في مناهج الكتابة الأدبية في ذلك العصر ، وخصائص الأسلوب التى تميز بها ، حتى نستطيع أن نضع ابن الزيات في مكانه التى تميز بها الصحيح بين هذه المناهج الكتابية .

لقد امتاز العصر العباسي منذ فجره بفحول الكتاب الذين غيروا من منهج الكتابة ، ورسموا لها طريقا واضحا يتسم بالجودة والايجاز ووضوح الغرض ، والبعد عن الفسولة ، والاستعانة بقوة المنطق ، وشيوع الحكمة ، ثم تأثرت الكتابة في نهاية العصر العباسي الأول ، وبداية العصر الثاني باللغة الفارسية ، وبما هو معروف عنها من المبالغة والاغراق والتهويل ، فظهر في لغة الكتابة الميل الى الاطناب ، واستخدام الترادف والازدواج ،

وصياغة الفقر القصيرة التى تعتمد على موسيقى الألفاظ وايحائها، فأين نضع نثر ابن الزيات من هذين المنهجين ، لقد ظهر ابن الزيات فى نهاية العصر العباسى الأول ، وأدرك طلائع العصر الثانى، فعاش على مفترق الطرق بين العصرين ، فهل تأثر بالطبقة الأولى من كتاب الدولة العباسية ؟ أو نهج منهج الطبقة الثانية؟ أو جمع بين المنهجين؟؟

ان أسلوب ابن الزيات فى الواقع مزيج من الطريقتين ، فهو أحيانا يرسل الكلام ارسالا فى الفاظ قوية موحية ، وفقر قصيرة مؤثرة ، تحمل طابع الجد والحزم والقوة والأسر ، مع الايجاز الذى يربطه بكتاب العصر الأول ، وأحيانا يعمد الى الاطناب . فى مقام الاطناب ، حين يدعوه الحال الى ذلك ، فيعمد الى التكرار والمبالغة ، والى الترادف والازدواج .

وهنا يجمل بنا أن نعرض لرأى مؤرخ من (١)مؤرخى الآداب العربية بسط فيه القول عن اساليب الكتابة فى تلك الأيام . قال : «كان كل ماكتب ابن المقفع ظرفا يسكب فيه عقلا وحكمة وفلسفة وعبرة ، وعلى هذا الذى رسم سار من ورائه كتاب عصره ،كيحيى ابن زيادة ، وعمارة بن حمزة ، والقاسم بن صبيح ، وغيرهم ممن أدركوا الدولتين وكتبوا للمنصور ، وهم رجال الطبقة الأولى ، وكذلك رجال الطبقة الثانية أمثال أبى عبيد الله معاوية بن يسار ، وأبى عبد الله يعقوب بن داود ، ويوسف بن القاسم ، ويحيى بن

---

(١) تاريخ الادب العربى للسباعى بيومى ج ٢

خالد ، وغيرهم ممن كتبوا للمهدى والهادى والرشيد ، ثم رجال الطبقة الثالثة أمثال الفضل وجعفر ابنى يحيى ، والفضل والحسن ابنى سهل ، وأحمد بن يوسف ، وعمرو بن مسعدة ، وغيرهم ممن كتبوا للرشيد والأمين والمأمون ، وأمثال محمد بن عبـد الملك الزيات ، وابراهيم بن العباس الصولى ، ونحوهما ممن تربوا فى عصر المأمون ، وأدركوا العصر الثانى ، فاعتبروا من رجال طبقته الأولى . فهذه الطبقات الثلاث حذت حذو ابن المقفع فى الألفاظ السهلة الممتنعة البعيدة عن المزاوجة والسجع ، الا ما جاء عفوا ، وفى المعانى الشريفة النبيلة ، المشعرة بسعة العقل ، وقوة المنطق ، ولذلك نقول أن استفادة العربية من الفارسية فى العصر العباسى الأول فى ناحية المعانى كانت أظهر وأوضح منها فى ناحية الألفاظ ... الى أن يقول :بعد عهد الرشيد فاضت الفارسية على العربية اذ ذاك بكل ما هو معروف عنها من بسط واطناب، فأكثروا من المفردات والجمل على سبيل الترادف والازدواج ، وحامل لواء هذه الطريقة هو الجاحظ ، وقداقتدى بالجاحظ فى هذا الاسلوب كتاب عصره الذين قلنا انهم تربوا فى عصر المأمون ، نقصدبذلك أنهم جمعوا الى الآداب العربيةالآداب الدخيلة ومنهم ابراهيم بن العباس الصولى ، ومحمـد بن عبـد الملك الزيات ، والحسن وسليمان ابنى وهب ، وغـيرهم ممن كتبـوا للمعتصم والواثق والمتوكل ، وكما أوحى العصر الأول الى كتابه أن يحمدواويحمد لهم الايجاز ، أوحى العصر الثانى الى رجاله أن يكرروا ويطنبوا ،

ولهذا لم تعد استفادتهم من الفارسية واقفة عند حدود المعانى كما كانت لدى أولئــكم الأسلاف ، بل صـــارت فى ناحية اللفظ والمعنى سواء » .

على أننا لا تتفق مع صاحب هذا الرأى فيما رآه من تأثر ابن الزيات فى نثره بأسلوب الكتابة فى العصر العباسى الثانى ، بل مازلنا عنــد رأينا الذى قدمناه من أن أسلوب ابن الزيات كان مزيجا من أسلوب العصرين ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن ننكر تأثر ابن الزيات بأسلوب كبار الكتاب فى بلاط المأمون ، حين كان يتردد عليهم فى شبابه ، وكلهم من خيرة الــكتاب فى العصر العباسى الأول ، كما لا يمكن أن نعد ابن الزيات من كتاب العصر الثانى كما أراد له صاحب هذا الرأى.

وليس لابن الزيات ديوان رسائل يرجع اليه فى احصاء رسائله التى كتبها فى مختلف الشئون ، وقد رجعنا فى البحث عن ديوان رسائله الى دور الكتب ، فلم نعثر له على أثر ، مع أن ابن النديم قال فى الفهرست : «ان ابن الزيات له كتاب رسائل» ولعله فقد . وجاء فى أمراء البيان « ان له كتاب رسائل قدره خمسون ورقة ولم يعثر عليه » ثم قال بعد ذلك : « والمعقول أن يكــون خلف أشتاتا من الأوراق ، والباقى اليوم من رسائله فى دواوين الأدب لا يتجاوز بضع صفحات » .

على أننا نستطيع أن نورد نماذج من نثره ورسائله مما وجدناه مثبتا فى بعض كتب الأدب . فمن ذلك ما كتبه على لسان المعتصم

الى أحد العمال : « أما بعد . فقد انتهى الى أمير المؤمنين (كذا) فأنكره ، ولا تخلو من احدى منزلتين ليس فى واحدة منهماعذر يوجب حجة ، ولا يزيل لائمة : اما تقصير فى عملك دعاك للاخلال بالحزم ، والتفريط فى الواجب ، واما مظاهرة لأهل الفساد ، ومداهنة لأهل الريب ، وأية هاتين كانت منك محلة النكر بك ، وموجبة العقوبة عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة ، والأخذ بالحجة ، والتقدم فى الاعتذار والانذار ، وعلى حسب ما أقلت من عظيم العثرة يجب اجتهادك فى تلافى التقصير والاضاعة والسلام » .

وكتب الى ابراهيم بن العباس الصولى أيام مقامه بالأهواز يقول : « قلة نظرك لنفسك حرمتك سناء المنزلة ، واغفالك حظك حطك عن الدرجة ، وجهلك بقدر النعمة ، أحل بك اليأس والنقمة ، حتى صرت من قوة الأمل ، معتاضا شدة الوجل ،ومن رجاءالغد متعوضا يأس الأبد ، وركبت مطية المخافة بعد مجلس الأمن والكرامة ، وصرت معرضا للرحمة بعد ما اكتنفتك الغبطة . وقد قال الشاعر :

اذا ما بدأت امرأ جاهـلا
ببـر فقصـر عن حمـله
ولم تره قابلا للجميـل
ولاعرف الفضـل من أهلـه
فسـمة الهـوان ، فان الهـوان
دواء لذى الجهـل من جهـله

وقد فهمت كتابك ، واغراقك واطنابك ، واضافة ما أضفت بتزويق الكتاب بالأقلام ، وفى كفاية الله غنى عنك يا ابراهيم ، وعوض منك ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

وعاتبه الحسن بن وهب فى أمر من الأمور ، فكتب اليه : « يا أخي . مازلت عن مودتك ، ولا حلت عن اخوتك ، ولا استبطأت نفسي لك ، ولا استزدتها فى محبتك ، وان شخصك لماثل نصب طرفى ، ولقل ما يخلو من ذكرك قلبى ، ولله در الذى يقول :

أما والذى لو شاء لم يخلق النوى
لئن غبت عن عينى لما غبت عن قلبى
يذكرنيك الشوق حتى كأننى
أناجيك من قرب وان لم تكن قربى

ومن توقيعاته السياسية :

« ان الله أوجب لخلفائه على عباده حق الطاعة والنصيحة ، ولعبيده على خلفائه بسط العدل والرأفة ، واحياء السنن الصالحة ، فاذا أدى كل الى كل حقه ، كان ذلك سببا لتمام المعونة ، واتصال الزيادة ، واتساق الكلمة ، ودوام الألفة » .

وكتب للواثق « ليس من نعمة يجددها الله لأمير المؤمنين فى نفسه خاصة الا اتصلت برعيته عامة ، وشملت المسلمين كافة ، وعظم بلاء الله عندهم فيها ، ووجب عليهم شكره عليها ، لأن الله جعل بنعمته تمام نعمتهم ، وبتدبيره وذبه عن دينه حفظ حريمهم ،

ويحياطته حقن دمائهم ، وأمن سبيلهم ، فأطـال الله بقـاء أمير المؤمنين منطوى القلب على مناصحتـه ، مؤيدا بالنصر ، معززا بالتمكين ، موصول البقاء بالنعيم المقيم » .

وكتب بحضرة المعتصم عهدا للواثق على مكة : « أما بعد ، فان أمير المؤمنين قد قلدك مكة وزمزم ، وتراث أبيك الأقـدم ، وجدك الأكرم ، وركضة جبريل ، وسقيا اسـماعيل ، وحفـر عبد المطلب ، وسقاية العبـاس ، فعليك بتقوى الله ، والتوسعة على أهل بيته » .

وعندما قبض المعتـزم على بابك الخر ، وانهـزم أتبـاعه وتفرقوا أمام جند الأفشين ، وأحضره الأفشين أسيرا الى بغـداد ليراه الخليفـــة ، ويراه الشـعب ، أمر المعتصم وزيره محمـد ابن عبـد الملك الزيات أن يكتب فى ذلك الى مـلوك الآفاق من المسلمين ، وقد ورد هذا الكتاب فى صبح (١) الأعشى للقلقشندى ومما جـاء فى هــذا الكتاب بعـد التحميـد : « فأما اللعين بابك وكفرته فانهم كانوا يغزون أكثر مما يغزون ، وينالون أكثر مما ينال منهم ، ومنهم المنحرفون عن الموادعة ، المتوحشـون عن المراسلة ، ومن أديلوا من تتابع الدول،ولم يخافوا عاقبة تدركهم، ولا دائرة تدور عليهم ، وكان مماطأ ذلك ومكنه لهم أنهـم قوم ابتدءوا أمرهم على حال تشاغل السلطان ، وتتـابع من الفتن ، واضطراب من الحبل ، فاستقبلوا أمرهم بغرة من أنفسهم وضعف،

---

(١) صبح الاعشى : ج ٦

واستثارة ممن باراهم ، فأجلوا من حولهم لتخلص البلاد لهم ، ثم أخربوا البلاد ليعز مطلبهم، وتشتد المؤنة ، وتعظم الكلفة ،ويقووا فى ذات أيديهم ، فلم يتواف اليهم قواد السلطان الا وقد توافت اليهم القوة من كل جانب ، فاستفحل أمرهم ، وعظمت شوكتهم ، واشتدت ضراوتهم ، واستجمع لهم كيدهم ، وكثر عددهم واعتدادهم ، وتمكنت الهيبة فى صدور الناس منهم ، وتحقق فى نفوسهم أن كل ما يعدهم الكافر ويمنيهم أخذ باليد ، وكان الذى بقى عندهم منه كالذى مضى ، وبدون هذا ما يختدع الأريب ، ويستنزل العاقل ، ويعتقل الفطن ، فكيف بمن لا فكرة له ، ولا روية عنده » .

ثم يمضى الكتاب فى وصف ما أعده أمير المؤمنين لملاقاتهم من جيوش وعدة ، إلى أن انتصر المسلمون عليهم ، وتخطفوهم بسيوفهم ، وانتظموهم برماحهم ، ولم يجدوا ملجأ ولا مهربا ، ثم يختم الخطاب بقوله « فالحمد لله الذى أعز دينه ، وأظهر حجته، ونصر أولياءه وأهلك أعداءه ، حمدا يقضى به الحق ، وتتمم به النعمة ، وتتصل به الزيادة . والحمد لله الذى فتح على أمير المؤمنين ، وحقق ظنه ، وأنجح سعيه ، وحاز له أجر هذا الفتح وذخره وشرفه ، وجعله خالصا لتمامه وكماله ، بأكمل الصنع ، وأحسن الكفاية .

وهذا الكتاب من الكتب المطولة ، فليرجع اليه فى صبح الأعشى من شاء .

الفصل الخامس
علاقته بالشعراء والكتاب

أدرك ابن الزيات فى شبابه كثيرا من فحول الشعراء : كالعباس بن الأحنف ، وأبى نواس ، وأبى العتاهية ، ومسلم ابن الوليد ، وغيرهم ، ولكن كتب الأدب لم تتعرض لعلاقة ابن الزيات بواحد من هؤلاء الفحول ، ولعل السبب فى ذلك أن ابن الزيات لم يكن قد استوى بعد على عوده شاعرا تتجه اليه الأنظار ، ولم يكن قد وصل بعد الى مركز الوزارة ، حيث تتجمع من حوله أقلام التاريخ وصحائفه . ولكنه ما كاد يلمع نجمه فى سماء بغداد ، ويصبح مناط الآمال فى دنيا الناس حتى ابتدأ التاريخ يدون صلته بالشعراء والكتاب الذين عاصروه فى تلك الفترة ، ويروى أحداثهم معه : ومن هؤلاء الشعراء والكتاب .. ابراهيم بن العباس الصولى .

كان ابراهيم صديقا حميما لابن الزيات ، افتتحا حياتهما الأدبية والسياسية معا فى بلاط المعتصم ، وكان ابراهيم أحدكتاب الدنيا فى زمانه حتى لقب بكاتب العراق ، وكان فوق ذلك شاعرا رقيقا ، وقد تعرضت صداقة الرجلين لمحنة قاسية ، فصمت عرى

الصداقة بينهما ، وأوهت حبالها ، حتى أنحى ابراهيم على صديقه بالهجاء ، وبسط فيه لسانه « وسبب (1) هذه المحنة أن ابن الزيات لما ولى الوزارة نقص ابراهيم مما يستحقه من الدعاء ، فلم تحتمل ذلك نفسه ، ورياسته وموضعه من الصناعة والدولة ، فعاتبه في ذلك فلم يعتبه ، فألهب له ابراهيم نار هجاء لا يطفئها الدهر » ثم عزله ابن الزيات بعد ذلك عن ولاية الأهواز ، وحبسه ،واستصفى أمواله ، فقال فيه ابراهيم :

من رأى فى المنـــام مثـل أخ لى
كان عــونى على الزمان وخـــلى
رفعتــــه حال فحــــاول حطى
وأبى أن يعـــــــــز الا بذلى

ثم أخذ يعرض بماضى ابن الزيات ، وما كان عليه قبل أن يلى الوزارة ، فيقول :

فان تكن الدنيـــا أنالتـــك ثروة
فأصبحت ذا يسر وقـد كنت ذا عسر
فقـد كشف الاثراء منـك خلائقـا
من اللـؤم كانت تحت ثوب من الفقر

ولكن ما الذى دفع ابن الزيات الى أن يتنكر لصديقه ، وأن ينتقص من مخصصاته ، وأن ينكبه فى ماله وولايته ؟ انمصادر التاريخ مجمعة على أن ابراهيم لم يكن فى ولايته نظيف اليد ،ولم

---

(1) الاغـــانى ج ٩

يكن يحسن الادارة ، وكان يصرف وقته كله فى الشراب والغناء ومجالسة القيان والمجان ، وابن الزيات بحكم مركزه حريص على أموال الدولة وسمعتها ، لا يفضى عن هذه الاعتبارات ، ولو كان المخطىء من أعز أصدقائه ، فوضع صالح الدولة فى الاعتبار الأول ، ولم يزده استعطاف ابراهيم له الا مضيا فى سياسته التى رسمها ، حتى يكون فى ذلك عظة لغير ابراهيم من الولاة ، ولم يخفه هجاء ابراهيم فيشترى سكوته بالاغضاء عنه . على أن هناك افتراضا يلقى ظلالا من الشك على حقيقة الأسباب التى أفسدت العلاقة بين الشاعرين .. فهل يكون ابن الزيات مسوقا الى ما فعله بدافع الحسد من مكانة ابراهيم الأدبية ، فهو يخشى أن يزحمه فى مكانته عند الخلفاء ؟ ولكن الموازنة بين أخلاق الرجلين : أخلاق الوزير الحازم ، الحريص على أموال الدولة حتى على الأمراء وأبناء الملوك ، وأخلاق ابراهيم الوالى المتحرر من قيود الوظيفة ، العابث بمقدراتها ، الفاشل فى ادارته ، تسقط من حسابنا هذا الافتراض ، وتمحو ظلال الشك وتبددها ، وتعطى لابن الزيات الحجة على خصمه فيما صنع .

وشاعر آخر اتصل بابن الزيات ، وهجاه فيمن هجاهم من الملوك والأمراء ، ذلك الشاعر هو دعبل الخزاعى ، ولكن ابن الزيات كان يخشاه ويتحاشاه ، فقد هجا المأمون والمعتصم بأقذع أنواع الهجاء ، ولما سئل ابن الزيات : لم لاتجيب دعبلا عن قصيدته التى هجاك فيها ؟ قال : ان دعبلا قد نحت خشبته ، وجعلها على

عنقه ، يدور بها يطلب من يصلبه منذ ثلاثين سنة ، ليس يجد أحداً يفعل ذلك به ، أأجىء أنا فأجيه ؟ قد ضللت اذن وما أنا من المهتدين .

واتصل أبو تمام كغيره من الشعراء بابن الزيات ، ومدحه بأروع مدائحه ، فمن قصائده التى مدحه بها هذه القصيدة التى يقول فيها :

خلق مشرق ورأى حسام
وو داد عذب وريح جنوب
كل يوم له وكل أوان
كرم ضاحك ومال كئيب

والقصيدة التى وصف فيها قلم ابن الزيات بقوله :

لك القلم الأعلى الذى بشباته
ينال من الأمر الكلى والمفاصل
لعاب الأفاعى القاتلات لعابه
وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل

وكان بن الزيات يضيق بمدائح أبى تمام فى ابن أبى دواد حتى قال له حين مدحه باحدى قصائده :

رأيتك سهل البيع سمحا وانما يغالى اذا ماضن بالشىء بائعه

وكان يود أن تقتصر مدائح ابى تمام عليه وعلى المعتصم ،وكان ابن الزيات يعتبره شاعر البلاط . لذلك جاءت قصائد أبى تمام

فيه وفى المعتصم من عيون شعر أبى تمام .

وهناك شعراء آخرون كانت بينهم وبين ابن الزيات مساجلات هجائية ومن أشهر هؤلاء على بن جبلة ، وعلى ابن الجهم ، ونرى فى ديوان ابن الزيات كثيرا من هجائه لهذين الشاعرين .

وشاعر آخر من كبار شعراء الدولة العباسية تغنى بمآثر الوزير ابن الزيات ، وأشاد بها فى شعره ، ومدحه بأبرز خصائصه وهى الكتابة ، فيقول البحترى فى مدح ابن الزيات :

تفننت فى الكتابة حتى عطل الناس فن عبد الحميد
فى نظام من البلاغة ماشك امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا حك فى رونق الربيع الجديد

وتمضى القصيدة فى هذه السلاسة الرائعة تمثل سياسة ابن الزيات فى حكمه ، ومكانته فى الدولة .

وقد أدرك ابن الزيات بحكم اتصاله بديوان المأمون كثيرا من كبار كتاب هذا العهد ، وتأثر بهم ، وعمل تحت ارشادهم ، ومن هؤلاء سهل بن هارون ، وأحمد بن يوسف ، وعمرو بن مسعدة . على أن هناك كاتبين ارتبط تاريخهما بابن الزيات ارتباطا وثيقا ، أحدهما كان لابن الزيات صديقا حميما والثانى كان لابن الزيات عدوا لدودا .

أما أولهما فهو الجاحظ الذى اصطفاه ابن الزيات كاتبا له بعد أن رفض أن يكون كاتبا فى ديوان المأمون ، فلازمه الجاحظ وانقطع اليه ، وانبسط رزقه فى جوار ابن الزيات ، ورغد عيشه ،

حتى ان ابن الزيات أقطعه أربعمائة جريب ، ومنحه خمسة آلاف دينار حين أهداه كتاب الحيوان ، ولم تقم العلاقة بين الرجلين على الرياء والمصانعة ــ كما خيل لبعض النقاد ــ حين توهم أن للسلطة التى جمعها ابن الزيات فى يده بحكم مركزه أثرا فى تقرب الجاحظ اليه نفاقا وزلفى ، ولو كان الأمر كذلك لكان تزلفه الجاحظ الى المأمون أجدى عليه وانفع ، حين ولاه ديوان الرسائل فاستعفاه ، كما أن ابن الزيات لم يكن فى حرصه على صداقة الجاحظ يصانعه أو يداريه ، ليشترى سكوت قلمه اللاذع عن تناوله بالنقد والتجريح ، كما يفعل السياسيون المحترفون الذين يشترون اقلام الكتاب ، لأنه يعلم أن كاتبا كبيرا كالجاحظ لا يمكن أن يشتريه سياسى مهما كان مركزه ، أو يستأثر به من دون رجال الدولة جميعا . ولو كان الأمر كذلك لفسدت قضية الود بينهما حين أهدى الجاحظ كتاب البيان والتبيين الى عدو ابن الزيات أحمد بن أبى دواد ، وأهدى كتاب الزرع والنخل الى ابراهيم بن العباس الصولى الذى أطلق لسانه فى ابن الزيات ، وكوفىء الجاحظ من كل منهما بخمسة آلاف دينار .

ولقد شاءت محنة الوزير ابن الزيات فى خلافة المتوكل أن تدحض كل فرية تشوب العلاقة بين الجاحظ وابن الزيات ، أو تعزوها الى سبب آخر غير الصداقة والود ، فقد ترك الجاحظ بغداد حزينا بعد نكبة الوزير ، يتلمس العزاء فى البصرة ، ويبتعد عن الرؤى والمغانى التى تذكره بصديقه ابن الزيات ، ولم يشأ

أن يربط أسبابه بأسباب حاكم جديد يعيش الى جواره فى بغداد
منعما كما كان ، حتى قبض عليه ، وسيق مكبلا بالاغلال الى
بغداد .

وبعد ، فهل صفت الحياة للجاحظ بعد موت صاحبه ؟ وهل
طاب له المقام فى بغداد بعد أن عفا عنه ابن ابى دواد ؟ لقد كان
ابن الزيات هو كل شىء فى حياة الجاحظ ، ولذلك آثر أن يعو
الى بلده ، وألحت عليه العلل والأمراض ، وظلت مأساة ابن الزيا
تؤرق مضجعه ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة بالبصرة .

وأما الثانى فهو أحمد بن أبى دواد قاضى الخلافة ، وكان فوق
فقهه شاعرا كاتبا أديبا كما يقول ابن خلكان ، وكان واسع الحيلة
شديد الدهاء ، حسن المدخل الى قلوب الخلفاء ببلاغته وفصاحتـ
انتزع من المأمون اعجابه به ، فأوصى به أخاه المعتصم « فكا
لايفعل فعلا ظاهرا ولا باطنا الا برأيه » وظلت له نفس المكا
عند الواثق . ولما مرض بن أبى دواد عاده المعتصم فى داره ، ونذ
ان شفاه الله أن يتصدق بعشرة آلاف دينار فقال ابن أبى دواد
اجعلها يا أمير المؤمنين لأهل الحرمين ، فقد لقوا من غـ
الأسعار عندنا ، فقال المعتصم : نويت أن أتصدق بها هنا ، وأنا أط
لأهل الحرمين مثلها . وقيل للمعتصم : كيف تعوده فى داره وأ
لاتعود اخوتك وأجلاء أهلك ؟ فقال المعتصم : وكيف لا أعود ر
ما وقعت عينى عليه قط الا ساق الى أجرا ، أو أوجب لى شك
أو أفادنى فائدة تنفعنى فى دينى ودنياى ، وما سألنى حاجة لنف
قط » .

وقال له الواثق يوما : « قد اختلت بيوت الأموال بلطبائك اللائذين بك ، والمتوسلين اليك ، فقال أحمد : ياأمير المؤمنين ، نتائج شكرها متصلة بك ، وذخائر أجرها مكتوبة لك ، ومالى من ذلك الا عشق اتصال الألسن بحلو المدح فيك . فقال الواثق : يا أبا عبد الله ، لامنعناك مايزيد فى عشقك ، ويقوى من همتك ، فتناولنا بما أحببت . وقال عنه لازون بن اسماعيل : « ما رأيت أحدا قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبى دواد ».

وقد روت كتب التاريخ من القصص ما يدل على المكانة الكبيرة التى كان يحظى بها ابن أبى دواد عند الخلفاء ، حتى كان الناس يستشفعون به لديهم ، استشفع لخالد بن يزيد الشيبانى عند المعتصم،ولمحمد بن الجهم البرمكى،فأنقذ رقبتهمامن القتل . كما استشفع لكثيرين غيرهما .

هذه المكانة كانت تؤرق مضجع ابن الزيات الوزير ، لأنه كان حريصا على أن يحتفظ لمركز الوزارة بهيبته وسلطانه ، فلا يرتفع نفوذ الى جانب نفوذه ، ولا يزحم سلطانه سلطان فى نفوس الخلفاء ، لذلك اشتعلت بينهما معركة خفية من الدسائس ،استخدم فيها ابن أبى دواد بعض الشعراء فى هجاء الوزير ، واستخدم فيها الوزير نفوذه للحد من مكانة ابن أبى دواد ، وفى ذلك يقول ابن خلكان : (١) : « كان بين الوزير ابن الزيات وابن ابى دواد منافسات وشحناء حتى ان شخصا كان يصحب القاضى المذكور ، ويختص بقضاء حوائجه ، منعه الوزير المذكور من التردد اليه ،

فبلغ ذلك القاضى ، فجاء الى الوزير ، وقال له : والله ما اجيئك متكثرا بك من قلة ، ولا متعززا بك من ذلة ، ولكن أمير المؤمنين رتبك مرتبة أوجبت لقاءك ، فان لقيناك فله ، وان تأخرنا عنك فلك ، ثم

ويقول اسحق بن ابراهيم الموصلى : « سمعت ابن أبى دواد فى مجلس المعتصم وهو يقول : « انى لأمتنع عن تكليم الخلفاء بحضرة ابن الزيات الوزير فى حاجة ، كراهة أن أعلمه ذلك ، ومخافة أن أعلمه التأتى لها » .

ويقول صاحب الأغانى : « ان الواثق لما أصدر أمره بألا يرى أحد من الناس وزيره ابن الزيات الا قام له ، بما فيهم القاضى ، فكان أحمد بن أبى دواد اذا رأى الوزير قادما قام ، واستقبل القبلة ، وشرع فى الصلاة ، فقال ابن الزيات ، لما رأى ذلك منه :

صلى الضحى لما استفاد عداوتى … وأراه ينسك بعدها ويصوم
لا تعدمن عداوة مسمومة … تركتك تقعد تارة وتقوم

هذا مجمل الصراع بين الرجلين ، قاض له من نفوذه ومكانته ما يسوغ له أن يبدأ الخلفاء بالكلام ، وكان ذلك محرما من قبل ووزير له من السطوة والقوة فى جهاز الحكم مايفرض على الجميع احترامه والقيام له ، بما فيهم عدوه اللدود أحمد بن أبى دواد .

---

(١) وفيات الاعيان ج ١

الفصل السادس

عقيدته

ظهر محمد بن عبد الملك الزيات في مصر اضطرب بكثير من العقائد والمذاهب ، وكثرت فيه الفرق الدينية ، وتعددت الملل والنحل ، وخاض الناس في كثير من الآراء التي كان يقف عندها السلف الصالح لايبحثون ولا يتفلسفون ، وشهد ابن الزيات في مطلع شبابه ، وتفتح مواهبه عصر المأمون ، وعاش على مقربة من بلاطه ، يخالط كبار الكتاب في ديوانه ، ويعمل الى جوارهم ، ورأى المأمون وهو يطلق العنان لحرية الرأي ، ويفتح للباحثين باب الجدل على مصراعيه ، ويشجع العلوم والمعارف من كل لون ومذهب ويحمي الفلاسفة والمتكلمين ، ويفسهم لهم في مجلسه ، ويدينهم منه ، وشاهد ابن الزيات مذاهب تصطرع ، وفرقا تنطاحن ، وعقائد تتشابك وتتلاحم ، ثم تفترق وتختلف ، كالمعتزلة والجهمية والشيعة والخوارج والمرجئة وغيرهم من فرق الزنادقة ، وذوي الميول الهدامة ، رأى ابن الزيات كل هذا ، وعاش فيه وفي تلك التيارات المختلفة ، ورأى بغداد تموج بأقوال هذه الفرق وهي تتصارع ، وتتقارع بالحجة ، وتتجادل بالرأي ثم رآها وهي تتنافس على الغلبة والسلطان ، ويستعدي بعضها الخلفاء ، ويستميلهم الى جانبه ، ليكون له الغلبة والظفر في معركة الرأي والفكر .

ولقد استطاع المعتزلة أن يظفروا بتأييد الدولة ومساندتها فى عصر المأمون ، فشايعتهم بالقوة ، واستخدموا سلطانها فى سبيل ارهاب خصومهم ، ونشر أفكارهم ، وجند المأمون أجهزة الدولة للتمكين لهم ، واذاعة مبادئهم بين عامة الناس ، وأصبح من أكبر دعاتهم ، وظلت الدولة من بعده مصطبغة بهذه الصبغة فى عهدى المعتصم والواثق ، دولة مذهبها الرسمى هو الاعتزال .

« وما دعا المأمون (١) الى هذا الا ثقافته الواسعة العميقة فشغف من أجل ذلك بالبحث العلمى والأدبى ، واتخذ له رجالا يجتمعون فى قصره ، فيتجادلون ، ويتناظرون فى شتى المسائل: مرة أدبا ، ومرة فقها ، وحينا تاريخا ، وحينا كلاما ، وكان عقله فلسفيا ، حرا فى تفكيره مع التقيد بأصول الدين ، وكان مايدور فى مجلسه من الجدل والمناظرة يتناقل على ألسنة الناس ، فيتجادلون فيه كذلك ، ويكون جدالهم صدى لجدال القصر .واذا كان المأمون على ماذكرنا من حرية التفكير ، كان الاعتزال أقرب المذاهب الى نفسه ، لأنه أكثر حرية ، وأكثر اعتمادا على العقل ، فقرب المعتزلة منه ، وأصبحوا ذوى نفوذ فى القصر ، وكان من أظهرهم ثمامة بن الأشرس ، وأحمد بن أبى دواد »

والمعتزلة من أقوى الفرق الاسلامية التى ظهرت فى أول العصر العباسى ، ورجالها يعتبرون من أعظم الرجال علما ومنطقا ، وأكثرهم بلاغة وفصاحة ، وهم الذين تصدوا لكل الفرق الجامدة التزمتة

---

(١) ضحى الاسلام للاستاذ المرحوم أحمد امين ج ٣ - ١٦٣

والفرق المنحرفة عن الدين ، ورجال الأديان الأخرى من يهـودية ونصرانية وزرادشتية ، فكانوا يفحمون خصومهم بالحجة والمنطق ويظهرون عليهم بالبلاغة ، ونصاعة البيان ، واستخدموا المنطـق والفلسفة لأول مرة فى الرد على خصومهم ، ولهم الفضل الأول فى وضع أسس علم الكلام وعلم البلاغة وعلم الجدل .

ولما اعتنق المأمون مذهب المعتزلة كان فى القصر تياران يتجه كل منهما فى اتجاه مضاد للآخر ، تياران يقودهما أصحاب الرأى وعلماء المعتزلة فى حاشية المأمون ، تيار ينادى بترك الناس أحرارا فى اعتقاد مايرون من الآراء والمذاهب ، وليس للخليفة أن يدخل فى نصرة مذهب على مذهب ، أو ترجيح رأى على رأى ، وليس للدولة أن تتدخل بسلطانها وقوتها فى ارغام الناس على اعتنـاق مايدين به المأمون من رأى المعتزلة ، وحصر المعـركة فى نطـاق الجـدل والمناقشـة . وعلى رأس هذا التيـار يحيى بن أكثـم قاضى المأمـون ، ويزيد بن هـارون الواسـطى ، فيحيى بن أكثم يقول للمأمون : « الرأى أن تدع الناس على ماهم عليـه ، ولا تظهر لهم أنك تميل الى فرقة من الفرق ، فان ذلك أصلـح فى السياسة ، وأحرى فى التدبير » ويزيد بن هارون يحكى عنـه يحيى بن أكثم أن المأمون قال:«لولامكان يزيدبن‌هارون لأظهرت القول بخلق القرآن » فقال له بعض جلسائه:«ومن يزيدبن‌هارون حتى يتقيه أمير المؤمنين ، فقال انى أخاف ان أظهـرته يرد على ، فيختلف الناس ، وتكون فتنة ، وأنا أكره الفتنة » . والتيار الثانى

على رأسه ثمامة بن الاشرس وأحمد بن أبى دواد ، وشاء القدر أن يضعف التيار الأول ، ويقف تدفقه ، فقد مات يزيد بن هارون سنة ٢٠٦ هجرية ، وعزل يحيى بن أكثم عن منصب قاضى القضاة، وتولى مكانه أحمد بن أبى دواد ، فرجحت كفة المؤيدين ، وحمل المأمون الناس على مذهب الاعتزال ، والقول بخلق القرآن ، بقوة الدولة وسلطانها ، وآمن بمذهبهم عن عقيدة ، متأثرا بما نادوا به من سلطان العقل ، وبمالهم من أثر فى الذود عن الاسلام .

ومذهب المعتزلة يقوم على أصول خمسة هى :

١ - القول بالتوحيد .
٢ - القول بالعدل .
٣ - القول بالوعد والوعيد .
٤ - القول بالمنزلة بين المنزلتين .
٥ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ويعد الأصل الأول والثانى من أهم اصول الاعتزال ، حتى لقب المعتزلة « بأهل العدل والتوحيد » وفى الاصل الأول يستمسكون بآيات التنزيه ، من مثل قوله تعالى : « ليس كمثله شىء » ويشرحونها ويوضحونها ، وخلصوا من أقوالهم فى هذا الأصل الى انكار رؤية الله فى الآخرة ، والايمان بأن الذات هى نفس الصفات ، فذات الله وصفاته شىء واحد لايقبل التجزئة بحال من الأحوال ، وتفرع عن هذا الأصل مسألة خلق القرآن التى سنعرض لها بعد قليل ، وأوصلتهم أبحاثهم فى الاصل الثانى

الى مسائل كثيرة أهمها ثلاث :

١ ــ أن الله سبحانه وتعالى يسير بالخلق الى غاية ، وأنه يريد خير مايكون لخلقه .

٢ ــ أن الله لا يريد الشر ولا يأمر به .

٣ ــ أن الله لم يخلق أفعال العباد لا خيرا ولا شرا، وأن ارادة الانسان حرة ، والانسان خالق أفعاله ، ومن أجل هذا كان مثابا على الخير ، ومعاقبا على الشر ، وتفرع عن هذا الأصل الحسن والقبح ، والجبر والاختيار . والأصلان الثالث والرابع ــ وهما الوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين ــ جمع بينهما المعتزلة للارتباط الشديد بينهما ، وهما مبنيان على نظرة المعتزلة للايمان ، فليس الايمان عندهم هو التصديق والاعتقاد القلبى وحده ، بل هو كذلك الاقرار باللسان ، وأداء الواجبات ، والقيام بالفروض ، وجرهم هذا الى القول بأن المعاصى تنقسم قسمين : صغائر وكبائر ، وأن الكبيرة ما أتى فيها الوعيد ، والصغيرة مالم يأت فيها وعيد وأن الكبائر يصل بعضها الى حد الكفر ، وهناك كبائر أقل منها منزلة . والفسق منزلة بين المنزلتين ، فالفاسق ليس مؤمنا ولا كافرا، وهم يرون فى الأصل الأخير ــ وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ــ أن يكون الامر والنهى بالقلب ان كفى ، وباللسان ان لم يكف القلب ، وباليد اذا لم يغنيا ، وبالسيف اذا لم تكفه اليد .

وقد جعل هذا الأصل الأخير للمعتزلة سلطانا داخل سلطا
الدولة ، فأنت ترى عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة يقول لعبد الكري
ابن أبى العوجاء ــ وكان يتهم بالزندقة والالحاد وافساد الشباب
قد بلغنى أنك تخلو بالحدث من أحداثنا فتفسده وتستزله ،وتدخ
فى دينك ، فان خرجت من مصرنا « يريد البصرة » والا قمت فيك
مقاما آتى فيه على نفسك . وترى واصل بن عطاء ــ شيخ المعتز
أيضا بالبصرة ــ لما ثبت له ما يشهد على الحاد بشاربن بردالشاع
يخطب فى الناس فيقول : « أما لهذا الأعمى الملحد ، أما له
المشنف المكنى بأبى معاذ من يقتله ، أما والله لولا أن الغيلةسج
من سجايا الغالية لدسست اليه من يبعج بطنه فى جوف منزله
فى حفله » وتعاون واصل وعمرو بن عبيد على الهتف به حتى ن
من البصرة ، فذهب الى حران ، فلما مات واصل رجع بشار ا
البصرة ، فلم يتركه عمرو بن عبيد حتى نفى ثانية ، وظل يتنق
فى البلاد الى أن مات عمرو ، فعاد الى البصرة ، وأقام بها ، و
ذلك يقول صفوان الانصارى لبشار (١) :

رجعت الى الأمصار من بعد واصل
وكنت شريدا فى التهائم والنجد

ويقول الأستاذ أحمد أمين (٢) عن مذهب المعتزلة : « لق
أطلقوا للعقل العنان فى البحث فى جميع المسائل ، فجعلوا له ال

---

(١) الاغانى ج ٣
(٢) ضحى الاسلام للمرحوم الاستاذ احمد امين ج ٣

أن يبحث فى السماء وفى الأرض ، وفى الله وفى الانسان ،وفيما دق وجل ، وكانت نظرتهم فى توحيد الله فى غاية السمو والرفعة، وكذلك كان نظرهم الى عدل الله ، فقد وقفوا أمام مشكلة المثوبة والعقوبة فرأوا أن ذلك لايكون له معنى الا بتقرير حرية الارادة فى الانسان ، وأنه يخلق أعماله بنفسه . أما عن مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عندهم ، فهم يرون تنفيذ مايعتقدون به وانكار ماينكرون ولو بالسيف ، وساروا على ذلك فعلا من تهديدهم بعض من اعتنقوا الزندقة بالقتل ، وهذا من أخطر المبادىء ، لأنه يجعل فى الأمة حكومة داخل حكومة ، ويهدد الحرية العامة ، فيجعل للفرد سلطانا أن يحمل السيف ، ليستعمله ضد مخالفه فى الرأى والعقيدة ، وهذا مسلك يدعو الى الفوضى والاضطراب ، ويظهر أن بعض المعتزلة شعر بهذا الخطر ، فقرر مبدأ عادلا ، وهو أنه لايجوز الخروج على الامام الجائر الا لجماعة لهم من القوة والمنعة ما يغلب على ظنهم معها أنها تكفى للنهوض وازالة الجور ، ولا يصح الخروج الا مع امام عادل . ومما يؤخذ عليهم أنهم لم يفرقوا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بين شىء أجمع على انكاره : كالسرقة والقتل والزنا ونحو ذلك ، وبين شىء مختلف فيه كالاعتقاد بوحدة الله ذاتا وصفات ، والقول بالعدل ، وخلق القرآن ، فكان يجب أن يفرقوا بينهما،ويقرروا أن الأشياءالمختلف عليها يجب أن يكون الأمر بالمعروف فيها والنهى عن المنكر مقصورا على المناظرة ، والدعوة الى الرأى فيها بالحسنى . ولكنا

نرى المعتزلة فى أيام دولتهم عكسوا الأمر ، وجعلوا المسائل المختلف عليها فى العقائد فى الدرجة الأولى ، واشتركوا مع الحكومة فى فرض رأيهم بالسيف ، وأقاموا الدولة وأقعدوها وقدموا القول بخلق القرآن على كل أمر عداه ، وجعلوا البلاد كلها موضوع محاكمة ، وقد كان من أثر ذلك أن خصومهم يوم دالت دولتهم عاملوا المعتزلة بنفس السلاح الذى استعملوه أيام سلطانهم » .

كانت الفتنة الكبرى التى أشعل المعتزلة أوارها فى ظل سلطان المأمون هى فتنة خلق القرآن على ماقال الاستاذ أحمد أمين ، حتى سميت المحنة الكبرى ؛ قاموا فيها بامتحان الناس وتعذيبهم وحملهم على القول بخلق القرآن بالتنكيل والأذى ، وقصدوا الفقهاء والمحدثين يصبون عليهم العذاب ألوانا ، ويأخذونهم بالشدة ، ويسلطون عليهم الولاة بأمر المأمون يسوقونهم الى السجن والجلد ، فمنهم من استنقذ نفسه وجسمه من العذاب ، وقال بقول المعتزلة ولو تقية ، ومنهم من صبر على المحنة الى نهايتها ، حتى قضى نحبه فى سبيل عقيدته ، وقد استمرت هذه المحنة مدة خلافة المأمون والمعتصم والواثق كما قدمنا .

وقد ظهر القول بخلق القرآن ــ أول ما ظهر ــ فى آخر الدولة الأموية ، على لسان الجعد بن درهم معلم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وقال بذلك جهم بن صفوان الترمذى صاحب مذهب الجهمية ، ولكن دعاة هذه الفكرة لم يظفروا بتأييد الحكومة فى آخر الدولة الأموية ، لأنها كانت صائرة الى الزوال ، فلما

جاء المأمون العباسى ، وأطلق الناس حرية الرأى ، وعقد المجالس فى بلاطه للجدل والمناظرة ، تبنى هذه الفكرة ، التى تفرعت عن أصل من أصول مذهب المعتزلة ، وحرضه على ذلك كبار علمائهم وعلى رأسهم أحمد بن دواد ، فبدأ يرسل الكتب الى الأمصار ، يطلب الى الولاة أن يأخذوا الفقهاء والمحدثين والعلماء بالقول بخلق القرآن ، وأن يعزلوا كل قاض لايعتنق هذا الرأى ، وأن يرفضوا شهادة كل شاهد لايؤمن به ، وكتب المأمون الى واليه على بغداد اسحق بن ابراهيم بن مصعب أن يشخص اليه بطرسوس سبعة من كبار المحدثين وهم : محمد بن سعد كاتب الواقدى ، وأبو مسلم مستملى يزيد بن هارون ، ويحيى بن معين ، وزهير بن حرب وأبو خيثمة ، واسماعيل بن دواد ، واسماعيل بن أبى مسعود ، وأحمد ابن الدورقى ، ويظهر أن هؤلاء السبعة كانوا من وجوه المحدثين فى بغداد ، وممن شنعوا على المأمون بالقول بخلق القرآن ، فلما أشخصوا الى المأمون سألهم جميعا عن خلق القرآن ، فأجابوا جميعا : أن القرآن مخلوق ، فأعادهم الى بغداد ، وأمر اسحق ابن ابراهيم بن مصعب أن يجمع الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث فى داره ، وأن يقول أمامهم هؤلاء السبعة بمثل ما قالوا به أمام المأمون ، ففعلوا ، وخلى سبيلهم ، ولم يطلب المأمون اشخاص أحمد بن حنبل مع هؤلاء السبعة ، لأن أحمد بن أبى دواد نصح المأمون بأن يترك ابن حنبل حتى يفتن الفقهاء من حوله ، لأنه يعرف صلابة ابن حنبل ، وليس من مصلحة القضية أن يكون بينهم ،

وقد روى أن ابن حنبل حزن لهذا الحادث جدا وقال : « لو كانوا صبروا وقاموا لله لكان انقطع الأمر وخافهم الرجل (يعنى المأمون) ولكن لما أجابوا وهم عين البلد اجترأ على غيرهم » وكان ابن حنبل اذا ذكرهم يغتم ويقول : « هم أول من ثلموا هذه الثلمة » . على أن ابن حنبل وصديقه محمد بن نوح لم يسلما من هذه المحنة ، اذ طلب المأمون اشخاصهما اليه بعد القبض عليهما ، وقيدهما بالقيود ، ولكن المأمون مات قبل أن يصلا اليه ، فأعادهما والى الرقة الى بغداد ، وتوفى ابن نوح فى الطريق ، وصلى عليه صديقه ابن حنبل وكفنه ودفنه ، وظل العذاب ينتظر أحمد بن حنبل على يد المعتصم ــ الخليفة الجديد ــ ولاقى منه ألوانا بتحريض ابن أبى دواد للمعتصم ، وابن حنبل لا يلين العذاب قناته ، ولا يضعف من عقيدته ،حتى اتجهت اليه انظار الجماهير معجبة بصلابته ، مبهورة بقوة ايمانه وعقيدته .

ونظرا للدور الكبير الذى لعبته هذه المحنة فى الدولة الاسلامية فى ذلك العصر ، ننقل بعض «محاضر» هذه الجلسات التى عقدت لامتحان العلماء والفقهاء (١) ، ونبدؤها بامتحان أحمد بن حنبل فى أيام المعتصم :

دعا المعتصم أحمد بن حنبل ، فأدخل والمعتصم جالس ، وابن أبى دواد وأصحابه فى حضرته ، والدار غاصة بأهلها ، وبالقضاة

---

(١) نقلت هذه المحاضر من كتاب ضحى الاسلام ج ٣ للمرحوم الاستاذ أحمد أمين .

والفقهاء من أتباع الدولة ، فأمرهم أن يناظروه ، وهذه خلاصة المناظـــرة :

المعتصـــم : ماتقـــول ؟.

ابن حنبل : أنا أشهد أن لا اله الا الله وأنجدك ابن عباس: يحكى أن وفد عبد القيس لما قدموا على رسول الله صـلى الله عليه وسلم أمرهم بالايمـان بالله ، فقـال : أتدرون ما الايمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم (يعنى بذلك أحمد بن حنبل أن ليس منه القـول بخلق القرآن) .

أحـد الحاضرين : قال الله تعالى : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » أفيكون محدث الا مخلوق ؟.

ابن حنبـل : قال الله تعالى « والقرآن ذى الذكر » فالذكر هو القرآن ، وتلك ليس فيها ألف ولام .

آخـــر : أليس قال الله خـالق كل شيء .؟

ابن حنبـل : قال تعالى : « تدمر كل شيء بأمر ربها » فهل دمرت الا ما أراد الله ؟.

ثـالث : ماتقول فى حديث عمران بن حصين : ان الله خـلق الـذكر ؟.

ابن حنبل : هذا خطأ ، ان الرواية « ان الله كتب الذكر »

رابع : جاء فى حديث ابن مسعود : « ماخلق الله من جنة ولا نار ، ولا سماء ولا أرض ، أعظم من آية الكرسى »

ابن حنبل : انما وقع الخلق على الجنة والنار ، والسماء والأرض ولم يقع على القرآن ، يا أمير المؤمنين : أعطونى شيئا من كتاب الله ، أو سنة رسوله غير ماردت به عليكم أقول به .

خامس : انك تفند ماسقناه اليك من الكتاب والسنة . ولكن قولك بأن كلام الله غير مخلوق يؤدى الى التشبيه .

ابن حنبل : هو أحد صمد ، لاشبيه له ولا عدل ، وهو كما وصف به نفسه .

المعتصم : ويحك ما تقول ؟.

ابن حنبل : ياأمير المؤمنين ، أعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسوله .

بعض الحاضرين : يحاجه بحجج عقلية .

ابن حنبل : ما أدرى ماهذا ؟ انه ليس فى كتاب الله ولا سنة رسوله .

بعض الحاضرين : يا أمير المؤمنين اذا توجهت له الحجة علينا وثب،واذا كلمناه بشىء يقول لا أدرى ما هذا؟.

ابن أبى دواد : انه ضال مضل مبتدع .

وهكذا ينفض المجلس ، ويعاد ابن حنبل الى الحبس ، ويوكل به من يناظره ؛ ويعاد الى مجلس آخر على هذا النمط ، واستمرت هذه المناظرات ثلاثة أيام . فلما ملوا مناظرته ، ويئسوا منه ، أمر المعتصم بضربه بالسياط ، فضرب كما قال المسعودى « ثمانية وثلاثين سوطا » حتى سال الدم منه ، وتعددت فيه الجراحات ، ثم أرسل الى السجن ، وأرسل اليه طبيب يعالج جراحاته ، فعالجه حتى برىء . ويرون أن ابن أبى دواد حرض المعتصم على قتله ، وقال : « يا أمير المؤمنين ، ان تركته قيل انك تركت مذهب المأمون ، وسخطت قوله ، وأنه غلب خليفتين » . ولكن المعتصم لم يسمع فى هذا قول ابن أبى دواد ولم يقتل ابن حنبل ، لأنه رأى أن جمهور الناس قد التفوا حول ابن حنبل أكثر من التفافهم حول أى شخص آخر ، فاذا قتله كانت فتنة . قال ميمون بن اصبع : « أخرج أحمد بن جنبل بعد أن اجتمع الناس ، وضجوا ، حتى خاف السلطان » . ويروون أيضا أنه قال: «لو لم أفعل ذلك لوقع شر لا أقدر على دفعه » . وفوق ذلك فقد اعجب المعتصم بشجاعة ابن حنبل وثباته على ما يعتقد أنه الحق ، فلم يخف ولم يهن ، وكان المعتصم شجاعا يحب الشجعان .

وهذه صورة «محضر» آخر من محاضر تلك الجلسات التى امتحن فيها الفقهاء فى موضوع خلق القرآن :

أحضر اسحق بن ابراهيم مشاهير العلماء ورءوس الناس ليمتحنهم فى خلق القرآن :

اسحق بن ابراهيم : ما تقول فى القرآن ؟ .

بشر بن الوليد : القرآن كلام الله ؟.

اسحق : لم أسألك عن هذا . أمخلوق هو ؟.

بشر : الله خالق كل شيء .

اسحق : هل القرآن شيء ؟.

بشر : هو شيء .

اسحق : فمخلوق هو ؟.

بشر : ليس بخالق .

اسحق : لا أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟.

بشر : ما أحسن غير ما قلت .

امتحان آخر :

اسحق : هل القرآن مخلوق .

على بن أبى مقاتل : القرآن كلام الله .

اسحق : لم اسألك عن هذا ، هل هو مخلوق .

على : هو كلام الله ، وان أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا .

امتحان ثالث :

اسحق : هل القرآن مخلوق ؟.

أبو حسان الزيادى : القرآن كلام الله ، والله خالق كل شيء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين امامنا وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، وان أمرنا ائتمرنا ، وان نهانا انتهينا ، وان دعانا أجبنا .

اسحق : هل القرآن مخلوق ؟.
أبو حسان : يعيد عليه مقالته .
اسحق : هذه مقالة أمير المؤمنين .
أبو حسان : قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ، ولا يدعوهم اليها ، وان اخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول : قلت ما أمرتنى ، فانك الثقة المأمون .
اسحق : ما أمرنى أن أبلغك شيئا ، وانما أمرنى أن أمتحنك .

امتحان رابع :

اسحق : ما تقول فى القرآن ؟.
احمد بن حنبل : هو كلام الله .
اسحق : مخلوق هـــو ؟.
أحمد : هو كلام الله لا أزيد عليها .
اسحق : ما معنى أنه تعالى سميع بصير ؟.
أحمد : هو كما وصف نفسه .
اسحق : فما معناه ؟.
أحمد : لا أدرى ، هو كما وصف نفسه .

امتحان خامس :

اسحق : ما تقول فى القرآن ؟.
ابن البكاء : القرآن مجعول ، لقول الله تعالى : أنا جعلناه قرآنا

عربيا ، والقرآن محدث لقوله : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » .

اسحق : فالمجعول مخلوق ؟.
ابن البكاء : لا أقول مخلوق ولكن مجعول .
اسحق : فالقرآن مخلوق ؟.
ابن البكاء : لا أقول مخلوق . ولكن مجعول .
وهكذا سارت الفتنة مندفعة لاتلوى على شىء ، شاملة لاتبقى على شىء ، دامية تسيل دماء المعذبين ، وتزهق أرواحهم ، كالحة الوجه عابسة مدمرة ، وشغلت بها الدولة عن كل ما عداها ، وتفرغ لها الخلفاء ، وشغلوا بها ، ومن خلفهم رجال الدولة من المعتزلة ، ينفخون فى النار ، ويشعلون الأوار ، ويضرمون لهيبها كلما خبت .

أين كان محمد بن عبد الملك الزيات وسط هذه العواصف الهوجاء ، وما موقفه من هذه الفتنة ؟ ان تاريخه يكاد يسير مع هذه الفتنة جنبا الى جنب ، فقد نبتت الفتنة فى عهد المأمون ، وهو كاتب صغير فى دواوين الخلافة ، أو عامل فى احدى وظائف القصر ، ومبلغ الظن أنه لم يشارك فى هذه الفتنة ، ولم يقم بدور ايجابى فيها ، نظرا لضآلة مركزه ، ولانشغاله بالتطلع الى مركزا أسمى من مركزه الذى يشغله ، ولأنه كان معنيا اذ ذاك باستكمال ثقافته ، والتزود بما يؤهله لمنصب الوزارة ، ولكننا نسأل عن

دوره فى هذه الفتنة ، بعد أن شغل أكبر مناصب الدولة ، وأصبح الوزير الأول فى بلاط المعتصم ، وصاحب الأمر والنهى فى سياسة الحكم ، وبعد أن أطلق المعتصم يده فى شئون الدولة ، وبسط له فى النفوذ ، وسار على نهجه الخليفة الواثق . أين كان محمد ابن عبد الملك الزيات وابن أبى دواد ــ عدوه وخصمه ــ يشعلها فتنة عارمة ، زلزلت كيان الدولة ، وأثارت عليها سخط الجماهير ، وهو الوزير المسئول عن اقرار الأمن ، واستتباب النظام ، واقامة العدل بين الناس ؟؟ ولماذا لم يشر اليه اصبع التاريخ فى كل أدوار هذه المحنة ؟؟.

هل كان ابن الزيات منحرفا عن المذهب السائد فى أرجاء الدولة ــ وهو مذهب المتعتزلة ــ لايؤمن به، ولا يدين بما فيه من آراء ، ولا يرى رأى دعاته فيما ينادون به مما يمس العقائد ، فآثر أن ينزوى عن الأبصار ، ويبتعد عن مساقط الضوء ، ويعيش بعيدا عن الفتنة ، حتى لا تتكشف عقيدته التى يؤثرها على مذهب المعتزلة ، ويظهر من مكنون رأيه ما استتر ؟؟. هذا احتمال . واحتمال ثان ، هو أن ابن الزيات الوزير قد شغلته مشاكل الحكم ، وأعباء الوزارة ، وتصريف شئونها ، والنظر فى مصالح الناس ، فلم يجد من وقته فراغا يصرفه فى تتبع أحداث هذه الفتنة ، أو المشاركة فيها ، أو الاسهام فى مشاكلها . واحتمال ثالث ، هو أن ابن الزيات ــ وهو رجل سياسة وحكم ــ رأى فى هذه الفتنة مسألة دينية ، لا تمت الى سياســة الدولة بسبب ، فلم يرد أن يقحم نفســه

فى مسالكها المتشعبة ، ودروبها الملتوية ، تمشيا مع مبـدأ فصـل السلطات ، فتـركها لرجال الدين يخوضـون فيها مع الخليفة ، ويتحملون وزر نتائجها . وهناك احتمال أخير ، وهو أن ابن الزيات كان رجلا بعيد النظر ، صادق الحس ، فوضحت له رؤية الأحداث فى هذه الظلمة الحالكة ، ورأى أين تقف جماهير الشعب من هذه الفتنة ، وأين يكون هواها ، وكيف ذهب ضحايا الفتنة بكل تقدير الشعب ومحبته ، ففضل أن يبتعد عن مسرح الأحداث ، استجلابا لرضاء هذه الجماهير ، وطمعا فى تأييدها ، وترك لعدوه أحمـد ابن أبى دواد أن يذهب وحده بغضب الجماهير،وأن يظفر بسخط الشعب دون شريك أو مزاحم ، ان كان سخط الشعوب ظفرا !!.

كل هذه الاحتمالات تتزاحم أمام أعيننا،وتتواردعلى مخيلتنا، نبحث عن أيها أصدق فى الحكم على موقف ابن الزيات من هذه الفتنة ، وأيها أقرب منطقا ، علنا نصل من مناقشة هذه الاحتمالات الى اجابة واضحة صريحة تهدينا الى الجواب عن السؤال الذى يلح علينا . وهو ، لماذا اختفى اسم محمد بن عبد الملك الزيـات وزير الدولة فى كل مراحل هذه الفتنة أيام المعتصم والواثق ، ولم تسلط عليه الأضواء فى أى موقف من مواقفها ؟ .

هل كان ابن الزيات ـ كما افترضنا أولا ـ لا يؤمن بمذهب المعتزلة ، ولا يدين بمعتقداتهم ، فهو نافر من فتنتهم أشد ما يكون النفور ، ناقم على أصحابها أكثر ما تكون النقمة،له مذهبه الدينى الذى لا يربطه بالاعتزال سبب ، فسكت ، ودارى مذهبه بالسكوت

وآثر البعد عن صخب الفتنة وما صحبها من أحداث ، ليكون بمأمن من بطش الخليفة وكيد الخصوم اذا وقفوا منه على مايغاير مذهبهم ، وبخاصة وقد رأى الخلفاء وأنصار الفتنة يغرقون فيها الى أذقانهم ، ويقدمونها على أهم مشاكل الدولة ؟؟.

قد يكون.ولكن بماذا كان يدين الوزير من عقائد ومذاهب ؟ أكان من أنصار رجال السنة ، يقف منهم . فى هذه الفتنة بقلبه ، ولا يستطيع الدفاع عنهم فيما اختبروا فيه ، ايثارا للعافية ؟ لم نجد فى المصادر التى بين أيدينا ما يشير من قريب أو بعيد الى أن ابن الزيات كان يدين بمذهب أهل السنة ، ويرى رأيهم ، ولم تشر المصادر التى بين أيدينا الى موقف واحد يشتم منه عطف الوزير على هؤلاء المعذبين المتحنين فى عقائدهم على عهد المعتصم أو الواثق . ولم نعرف عنه أنه تشيع لواحد منهم ، أو حاول التخفيف عما يلاقيه على أيدى خصومه . ولكن مصادر التاريخ تكشف لنا الغطاء عن عقيدة ابن الزيات وعن مذهبه فى جانب آخر ، تقول هذه المصادر ان ابن الزيات كان جهميا ، يدين بمذهب جهم بن صفوان الترمذى، ويرى رأيه فى أصول العقائد ، وقد استفاض هذا الرأى فى كثير من مصادر التاريخ قديمها وحديثها . على أننا لو سلمنا بصحة ما نسبته هذه المصادر الى ابن الزيات من اعتناقه لمذهب جهم بن صفوان ، فكيف استطاع الوزير أن يكون جهميا ، فى الوقت الذى كان فيه الخليفة ــ وهو رأس الدولة ــ وكبار حاشيته من

المعتزلة ؟ وكيف يتجه الخليفة الى اليمين،ويتجه وزيره الى الشمال؟ وكيف ينادى الخليفة برأى فى الدين يحمل الشعب عليه ، وينادى وزيره برأى آخر يناقضه ؟.

ان الاجابة على هذه الأسئلة تقتضينا أن نلم المـامة قصيرة بمذهب الجهمية ، الذى كان يتبعه ابن الزيات ويتشيع له ، لنعرف أين يقف مذهب هؤلاء الجهميين من مذهب المعتزلة ، وهل هناك تضارب كبير فى الرأى بين المذهبين ، أم أن الفوارق بينهما لا تدعو الى العجب من موقف الوزير ، لأنها فوارق فى الشـكل دون الجوهر ؟؟.

يقول (١) الشهرستانى عن مذهب الجهمية : « هم أصحاب جهم بن صفوان ، وهو من الجبرية الخالصة ، ظهرت بدعته بترمذ وقتله سالم بن أحوز المازنى بمرو فى آخر ملك بنى أمية ، ووافق المعتزلة فى نفى الصفات الأزلية ، وزاد عليهم بأشياء ، منها قوله : « لا يجوز أن يوصف البارى بصفة يوصف بها خلقه ، لأن ذلك يقتضى تشبيها ، فنفى كونه حيا عالما ، وأثبت كونه قادرا فاعلا خالقا ، لأنه لا يوصف شيء من خلقه بالقدرة والفعل والخلق » ومنها قوله فى القدرة الحادثة : « ان الانسان ليس يقدرعلى شيء ولا يوصف بالاستطاعة ، وانما (هو) مجبور فى أفعاله،لا قدرة له ولا ارادة ولا اختيار ، وانما يخلق الله تعالى الأفعال فيه ، على حسب ما يخلق فى سائر الجمادات ، وينسب اليه الأفعال مجازا ،

---

(١) الملل والنحل للامام أبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى

كما ينسب الى الجمادات ، كما يقال أثمرت الشجرة،وجرى الماء وتحرك الحجر ، وطلعت الشمس وغربت ، وتغيمت السماء وأمطرت ، وأزهرت الأرض وأنبتت ، الى غير ذلك . والثواب والعقاب جبر ، كما أن الأفعال جبر ، واذا ثبت الجبر ، فالتكليف أيضا كان جبرا » ومن أقواله :«ا نالجنةوالناريفنيان بعدخول أهلهما فيهما ، اذ لايتصور حركات لا تتناهى آخرا ، كما لاتتصور حركات لاتتناهى أولا ، وحمل قوله تعالى خالدين فيها على المبالغة والتأكيد ، دون الحقيقة فى التخليد ، كما يقال : خلد الله ملك فلان ، واستشهد على الانقطاع بقوله تعالى : « خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ما شاء ربك»فالآية اشتملت على شرطية واستثناء ، والخلود والتأبيد لا شرط فيه ولا استثناء ، ومنها قوله : من أتى بالمعرفة ثم جحد بلسانه لم يكفر بجحده ،لأن المعرفة لاتزول بالجحد فهومؤمن . ومن قوله: ان الايمان لايتبعض أى لاينقسم الى عقد وقول وعمل ، ولا يتفاضل أهله فيه ، فايمان الأنبياء وايمان الأمة على نمط واحد ، اذ المعارف لاتتفاضل.وكان السلف كلهم من أشد الرادين عليه ، ونسبته الى التعطيل المحض ، وهو أيضا موافق للمعتزلة فى نفى الرؤية ، واثبات خلق الكلام وايجاد المعارف بالعقل قبل ورود الشرع » .

والمقريزى (١) فى خططه يقسم الفرق أربع طوائف وهى :

---

(١) خطط المقريزى الجزء الثانى ٣٤٩ - ٣٥١

١ ــ المعتزلة : وهم الغلاة فى نفى الصفات الالهية ، والقائلون بالعدل والتوحيد ، وأن المعارف كلها عقلية حصولا ووجوبا قبل الشرع وبعـــده .

٢ ــ المشبهة : وهم الذين يغالون فى اثبات صفات الله ضد المعتـــزلة .

٣ ــ القدرية : وهم الغلاة فى اثبات القدرة للعبد فى اثبات الخلق والايجاد ، وأنه لا يحتاج فى ذلك الى معاونة الله .

٤ ــ المجبرة : وهم الغلاة فى نفى استطاعة العبد قبل الفعل وبعده ومعه ، ونفى الاختيار له ، ونفى الكسب .

وبعد أن ذكر المقريزى هذه الفرق بالتقسيم الذى تقـــدم قال : « والجهمية جزء من الفرقة الرابعة ، وهم يغـالون فى نفى استطاعة العبد كما تقدم فى المجبـرة ، ونفى الاختيـار له ونفى الكسب ، وهم أتباع جهم بن صفوان التـرمذى ، مولى راسب الذى قتل فى آخر دولة بنى أمية ، وهو ينفى الصفات الالهية كلها ويقول لايجوز أن يوصف البارى تعالى بصفة يوصف بها خلقـه، وان الانسان لايقدر على شىء ، ولا يوصف بالقدرة ولا بالاستطاعة وأن الجنة والنار يفنيان ، وتنقطع حركات أهلهما ، وأن من عرف الله ولم ينطق بالايمان لم يكفر ، لأن العلم لايزول بالصمت وهو مؤمن مع ذلك . وقد كفره المعتزلة فى نفى الاستطاعة ، وكفره أهل السنة فى نفى الصفات وخلق القرآن ونفى الرؤية ، وانفرد بجواز الخروج على السلطان الجائر » .

ويقول صاحب كتاب أمراء البيان (١) : « كان ابن الزيات جهميا ، يقول بمذهب جهم بن صفوان ، وكان يوافق المعتزلة فى مسائل كثيرة ، ومنها القول بخلق القرآن ، وأن الله لايرى فى الآخـــرة » .

وقال الدكتور أحمدأمين بعد أن ذكرمصرع معبد الجهنى على يد الحجاج ، ومصرع غيلان الدمشقى على يد هشام بن عبد الملك « وجهم بن صـــفوان ، وان كان جبريا الا أنه يعد من شـــيوخ المعتزلة،وقال بخلق القرآن، وقد خرج مع الحارث بن سريج على بنى أمية فقتل » .

وقال فى موضع آخر عند الكلام على الجبـــر والاختيـــار : « والواقع أن هذه مشكلة المشاكل ، سميت بالجبر والاختيـــار وبحرية الارادة ، وبالقضاء والقدر ، وحار فيها الفلاسفة قديمـــا وحديثا ، فأثارها الفلاسفة اليونانيون قبل المعتزلة ، وكان بعضهم يرى أن الارادة حرة فى الاختيار كالأبيقوريين ، وبعضهم كـــان يرى أنهـــا مجبـــورة على الســـير فى طريق لا يمـــكنها أن تتعـــداده كالرواقيـــين ، ولما جاء الاســـلام ، وجاء دور البحث أثاروا هـــذه المســـألة ، فقـــال الجبـــريون وعلى رأســـهم ــ جهم بن صفوان ــ : « ان الانسان مجبور وليست

---

(١) أمراء البيـــان ج ١

(٢) ضحى الاســـلام الجزء الثـالث

له ارادة حرة ، ولا قدرة له على خلق أفعـاله ، وهو كالريشـة في مهب الريح ، أو كالخشبة بين يدى الأمواج ، وانما يخلق الله الأعمال على يديه » وقالت المعتزلة : « ان ارادة الانسان حـرة ، وقدرته تخلق مايعمل ، وفى استطاعته أن يفعل وألا يفعل ، وهو يفعل مايختار » .

من هذا العرض لمذهب الجهمية ـ كما عرضنا من قبل لمذهب المعتزلة ـ نرى أن وجوه الاختلاف بين المذهبين تكاد لاتوجد فى المسائل الكبرى التى كانت تشغل الدولة اذذاك ، بل هى معدومة بالفعل ، لأن كلا المذهبـين يتفـق على نفى الصـفات عن الله سبحانه وتعالى ، وبالتالى يتفق المذهبان على أن القرآن مخلوق ، فجهم بن صفوان يساير المعتزلة فى هذا الرأى ، حتى عده المرحوم الأستاذ أحمد أمين من شيوخ المعتزلة ولم يخالفهم الافىموضوع الجبر والاختيار ، وبعض المسائل الأخرى . فاذا صدق ما قـاله المؤرخون من أن محمد بن عبد الملك الزيات كان جهميا ، يدين بمذهب الجهمية ، نراه لم يبعد كثيرا برأيه ومعتقده عن المـذهب الرسمى ، الذى كان يدين به الخلفاء ، وتؤيده الدولة تأييدا رسميا والذى تبلور فى القول بخلق القرآن ، وأصبح هذا القول علما على تلك الفتنة .

ولعل مافى مذهب الجهمية من ميل الى القول بالجبر ، ومـا يدعو اليه هذا القول من التسليم ، هو الذى حدا بابن الزيات الى أن يقف هذا الموقف السلبى من الفتنة ، فلم يشارك فيها مشاركة

ايجابية ، لأن ما أثارته الفتنة من عواصف وأعاصير كان أمرا مقدرا محتوما ، وكل ما قيل فيها من تأييد ونفى قدرة الله وخلقه على ألسنة قائليه ، ليس لهم فيه اختيار ولا كسب ، فوقف ابن الزيات من الفتنة موقف المحايد ، ولم يدل بدلوه فى الدلاء ، وآثر أن يطوي نفسه على عقيدته ، دون أن يشعل ضرامها مع مشعليها ، ودون أن يحمل الناس على الخوض فيها ، لأن كلاميسر لما خلق له .

وقد لاتكون جهمية ابن الزيات وحدها هى التى صرفته عن أن يكون له فى الفتنة دورمعلوم ، فهناك الاحتمالات التى ذكرناها قد يكون لها أثر كبير فى هذا الأمر ، ولا نستطيع أن نسقطها من حسابنافى تقدير موقف ابن الزيات: فليس يبعد أن يكون انصراف ابن الزيات الى مشاكل الدولة السياسية،ومراقبة العمال وحسابهم والاتصال بأطراف هذا الملك الشاسع ، وتدبير شئون الحرب والخراج ، قد شغله كل هذا عن الخوض فى تلك الفتنة ، ولم يدع له من الوقت ما ينفقه فى تتبع أدوارها ، وملاحقة أحداثها . كما أنه ليس ببعيد أن يكون ابن الزيات قد نظر الى الفتنة من زاويتها الدينية ــ وهو رجل سياسة لادين ــ فآثر أن يترك الفتنة لرجال الدين من حاشية الخلفاء ، وعلى رأسهم قاضى القضاة أحمد بن أبى دواد ، الذى خب فيها ووضع .

على أننى أرجح أن يكون سر اختفاء ابن الزيات عن مسرح الحوادث فى تلك الفتنة هو مالمسه يبعد نظره من عدم رضاء الشعب

عن تلك البدعة الجديدة ، وما تدعو اليه من زعزعة العقائد التى توارثها منذ أيام السلف الصالح ، وما رآه من التفاف الجماهير حول شهداء الفتنة ، وبخاصة الامام أحمد بن حنبل ، وما أحسه بثاقب فكره من غليان مراجل الحقد فى نفوس الناس على مثيرى هذه الفتن . وابن الزيات قد رسم سياسته على أن يكون قريبا من قلوب الناس ، حبيبا الى الشعب ، بعيدا عن المشاركة فى التهجم على عقائده ، مادامت هذه العقائد لاتمس سياسة الحكم من قريب أو بعيد . ولذلك يقول عنه بعض المؤرخين : « كان ابن الزيات سياسى ذلك العصر المنقطع النظير – يراعى عواطف العوام ، ويحاذر ما يهيجهم ، ويقول : «ارجاف العوام مقدمة الأحداث»

هذا ما أرجحه ، مضافا اليه تلك العداوة الشديدة التى كانت قائمة بين محمد بن عبد الملك الزيات والقاضى أحمد بن أبى دواد الذى كان على رأس تلك الفتنة ، فأخلى ابن الزيات لعدوه الميدان يصول فيه ويجول ، ويورط الخلفاء فى تعذيب الفقهاء ، ويحملهم على قتلهم ، والتمثيل بهم ، ليذهب وحده بأوزار الفتنة ، وتنصب على رأسه لعنات الشعب ، وتحيط به كراهيته ، وفى هذا كله مكسب للوزير : فكل أرض يخسرها ابن أبى دواد أمام الشعب ، تضاف لحساب محمد بن عبد الملك الزيات فى ميزان الحسنات .

الفصل السابع
النهاية

يكاد الاجماع ينعقد على أن حياة الوزير ابن الزيات ، التى ظلت تتألق فى سماء بغداد فى عهود ثلاثة من الخلفاء ، قد خبا بريقها على غير ماكان يتوقع ، وأن نجمه اللامع قد هوى على غير ماكان ينتظر ، وأن هذه الآمال العريضة التى كانت تجيش بها نفس ابن الزيات ، قد تلاشت فى مأساة فاجعة ، تستثير النكر ، وتبعث الشجى !!

ولقد أفاض المؤرخون فى وصف هذه المأساة ، ونقلوها الينا فى صورتها المعتمة القاتمة ، ولم تكن بشاعة المأساة فى الاغتيال وانما فى أسلوبه ، ذلك الأسلوب الذى ينم عن الضراوة التى كانت مسيطرة على الجناة الذين أنهوا حياةابن الزياتعلى هذه الصورة وهؤلاء أسلاف ابن الزيات من الوزراء والكتاب اغتالهم خلفاؤهم بشتى الوسائل ، على أن هذه الوسائل لم تبلغ من البشاعةوالنكر ما اتبع فى طريقة مقتل ابن الزيات ، بل كان مصرعه صورة فريدة فى سلسلة هذه المآسى ، التى لطخت أيدى الخلفاء العباسيين منذ عهد السفاح .

ولو أنك تتبعت مصارع الوزراء والكتاب منذ قامت الدولة العباسية لوجدت للخلفاء العباسيين عذرا فى كثير من حوادث

الاغتيال التى قاموا بها : فأغلب الذين اغتيلوا قد ارتكبوا أعمالا تبرر اغتيالهم ، فأبو سلمة الخلال أراد أن يحدث انقلابا ، وينقل العرش الى العلويين،ويخون قضية السفاح مؤسس الدولة، وأبو مسلم الخراسانى تطاول على مقام الخلافة وقدم نفسه على المنصور ، وأراد أن يشاركه الحكم ، فأنهى المنصور حياته ، وأبو أيوب المورياني . استخدم أجهزة الدولة لصالحه وصالح أقربائه ، وأشاع المحسوبية البغيضة ، واغتال ابن المنصور فدس له السم ، وسرق أموال المنصور وخزائنه ، والبرامكة طغوا على الرشيد وأقاموا دولة فارسية تحت شعار العباسيين ، وكذلك كان شأن الفضل بن سهل مع المأمون . أما ابن الزيات فلم يحاول أن يحدث انقلابا فى نظام الدولة ، ولم يرتكب خيانة ضد العرش ، ولم يستغل الحكم لصالحه أو صالح أحد من عشيرته ، بل كان على عكس ذلك لايحابى ولا يجامل ، ولا يسدى الى أصدق أصدقائه أى خدمة على حساب الصالح العام ، حتى كانت سياسته الحازمة مثار سخط الخصوم والأصدقاء .

أما أسباب نكبة ابن الزيات فتعزى الى سببين : السبب الأول هو ما أشار به ابن الزيات عقب وفاة الواثق بتولية محمد بن الواثق بدلا من المتوكل ، (١) « فعارضه فى ذلك القاضى أحمد بن أبى دواد ، وأشار بتولية المتوكل ، وقام فى ذلك وقعد ، حتى عممه بيده ، وألبسه البردة ، وقبله بين عينيه ، وتبعه فى ذلك بقية القواد،

(١) ابن خلكان ج ٤

بعد أن اعترضوا على تولية ابن الواثق وهو غلام صغير أمرد » ، فلم يسع ابن الزيات الا أن يستسلم للأمر الواقع،وينزل على رأى الجماعة ، وانتصر عليه غريمه ابن ابى دواد فى هذه الجولة . أما السبب الثانى فسوء المعاملة التى كان يلقاها المتوكل من الوزير أيام ولايته للعهد فى حياة أخيه الواثق ، والتضييق عليه فى مخصصاته التى كان ينفقها فى مجالس اللهو والشراب ، وقد استعرض الطبرى (١) فى حوادث سنة ثلاث وثلاثين ومائتين قصة مصرع ابن الزيات وأسبابها فقال : « وفى هذه السنة قبض المتوكل على الوزير ابن الزيات ، وحبسه ، وسبب ذلك أن الواثق استوزر ابن الزيات وفوض الأمور كلها اليه ، وكان الواثق غاضبا على أخيه جعفر المتوكل ، فأتى المتوكل الى ابن الزيات يسأله أن يكلم الواثق ليرضى عنه ، فوقف بين يديه لا يكلمه ، ثم أشار عليه بالقعود فقعد ، فلما فرغ من الكتب التى بين يديه التفت اليه كالمتهدد ، وقال : ماجاء بك ؟ فقال : جئت أسأل أمير المؤمنين الرضا عنى ، فقال ابن الزيات لمن حوله : انظروا ، يغضب أخاه ثم يسألنى أن أسترضيه له ، اذهب ، فاذا صلحت رضى عنك ، فقام من عنده حزينا فأتى أحمد بن أبى دواد ، فقام اليه أحمد ، واستقبله على باب البيت وقبله ، وقال : ماحاجتك جعلت فداك ؟ قال : جئت لتسترضى أمير المؤمنين لى ، قال : افعل ونعمة عين وكرامة ، ثم كلم الواثق فى أخيه حتى رضى عنه . ولما توفى الواثق أشار محمد بن عبد

---

(٢) الطبرى ج ١١

الملك الزيات بابن الواثق وتكلم فى ذلك ، فكان سبب هلاك ابن الزيات ، ثم أمهله أربعين يوما فى الوزارة ، وبعد ذلك أمر ايتاخ بأخذه وعذابه ، فبعث اليه ايتاخ ، فظن أنه دعى به ، فركب مبادرا يظن أن الخليفة دعا به ، فلما حاذى منزل ايتاخ قيل له : اعدل الى منزل أبى منصور ، فعدل وأوجس فى نفسه خيفة ، ثم ادخل حجرة وأخذ منه سيفه ومنطقته وقلنسوته ودراعته ،وأرسل ايتاخ بنهب داره وأخذ ما فيها من متاع ودواب وجوار وغلمان ، ووجه المتوكل الى بغداد فى قبض ماهنالك من أمواله وخدمه ، وأمر أبا الوزير بقبض ضياعه وضياع أهل بيته حيث كانت ، ولم يزل ابن الزيات فى حبسه مطلقا ، ثم أمر بتقييده فقيد ، وامتنع من الطعام ، وكان لايذوق شيئا ، وكان شديد الجزع فى حبسه كثير البكاء ، قليل الكلام ، كثير التفكير ، فمكث أياما ثم سوهر ،ومنع من النوم ، يساهر وينخس بمسلة ، ثم أمر بتنور من خشب فيه مسامير حديد فأدخل فيه وعذب به أياما . ذكر الدندانى أن الموكل بعذابه قال : كنت أخرج وأقفل الباب عليه ، فيمد يديه الى السماء جميعا حتى يدق موضع كتفيه،ثم يدخل التنور فيجلس،والتنور فيه مسامير حديد ، وفى وسطه خشبة معترضة ، يجلس عليها المعذب اذا أراد أن يستريح ، فيجلس على الخشبة ساعة ، فاذا سمع صوت الباب يفتح قام قائما كما كان ثم شدوا عليه ، قال المعذب له : خاتلته يوما وأريته أنى أقفلت الباب ، ولم أقفله ، ثم مكثت قليلا ، ثم دفعت الباب غفلة فاذا هو

قاعد فى التنور على الخشبة ، فقلت ، أراك تعمل هذا العمل ، فكنت اذا خرجت بعد ذلك شددت خناقه ، فكان لايقدر على القعود، واستللت الخشبة حتى كانت تكون بين رجليه ، فمامكث بعد ذلك الا أياما حتى مات . واختلف فى الذى قتل به فقيل : بطح فضرب على بطنه خمسين مقرعة ، ثم قلب فضرب على ظهره مثلها ، فمات وهو يضرب ، وهم لايعلمون ، فأصبح ميتا قد التوت عنقه وتنفت لحيته ، وقيل مات فى التنور بغير ضرب . وكان يسمع قبل موته بيومين أو ثلاثة يقول لنفسه : يامحمد لم تقنعك النعمة والدواب الفره ، والدار النظيفة ، والكسوة الفاخرة وأنت فى عافية ، حتى طلبت الوزارة ، ذق ما عملت بنفسك ! فكان يكرر ذلك على نفسه ، فلما كان قبل موته بيوم ذهب عنه عتاب نفسه، فكان لا يزيد على التشهد وذكر الله،فلما مات دفعت جثته الى ابنية سليمان وعبد الله وكانا محبوسين،وقد طرحت الجثة على باب من خشب ، فى قميصه الذى حبس فيه وقد اتسخ ، فغسلاه على الباب ودفناه ، وحفرا له فلم يعمقا ، فذكر أن الكلاب نبشته وأكلت لحمه » .

هذه هى رواية الطبرى ، ويروى ابن خلكان : « أن المتوكل لما قبض على ابن الزيات أمر بادخاله التنور ،وقيده بخمسة عشر رطلا من الحديد ، فقال : ياأمير المؤمنين ارحمنى ، فقيل له : الرحمة خور فى الطبيعة كما كان يقول للناس » ولم تخرج أقوال بقية المؤرخين عما ورد فى كلام الطبرى وابن خلكان

وبعد فهل كان المتوكل منصفا فى نكبة وزيره واغتياله على هذه الصورة النكراء ، التى لم يسمع بمثلها فى مصارع الوزراء الذين اغتيلوا قبله ؟ وهل كانت معاملة الوزير للمتوكل أيام ولايته للعهد ، وترشيحه لابن الواثق للخلافة كافيين لتبرير هذه الجريمة؟ لقد كان سر الجفوة بين الوزير وولى العهد هى سيرة المتوكل وامعانه فى اللهو ، حتى أغضب عليه قلب الواثق . والوزير يعلم ما يقارفه المتوكل من آثام ، وما يأتيه من فجور مع بطانته من أبناء الأتراك ، ويعلم فوق ذلك رأى الخليفة فيه ، وبرمه بتصرفاته وسفهه ، وابن الزيات بطبيعة عمله حريص على أموال الدولة لايسمح بها أن تنفق فى عبث الأمراء ، ومجالس لهوهم ، لأن المال مال الأمة ، والأجدر به أن ينفق على مصالح الأمة، وصالح الرعية، فابن الزيات لايبالى غضب المتوكل حين يعامله بهذه الجفوة لسوء سيرته ، وكثرة نفقاته التى كان يلحف فى طلبها من الوزير كلما اشتدت حاجته الى المال . وقد عامل ابن الزيات الواثق مثل هذه المعاملة أيام ولايته للعهد ، فكان ينقص من أعطياته التى يأمر بها المعتصم ، وكان يقصده فى ضياعه وأملاكه ، وكان يضربه بالمقرعة يروضه على الجلوس الى أستاذه ، ومع ذلك اضطر الواثق الى أن يقلد ابن الزيات الوزارة، لأنه رأى الملك فى حاجة الى ابن الزيات، وكفر عن ايمانه التى أقسم بها على قتله اذا ولى العرش . فكان بذلك أبعد نظرا من أخيه .

أما موقف ابن الزيات من تولى ابن الواثق الخلافة فهو اجتهاد

لرأيه ، لما يعلمه من سيرة المتوكل أيام ولايته للعهد ، فرأى أن أمر الخلافة لا يستقيم اذا تولاها هذا العابث المستهتر ، بل ستضيع هيبتها ، وتضعف مكانتها ، فآثر أن يرشح ابن الواثق ، على أن يكون رمزا للخليفة حتى يبلغ الحلم ، ويقوم عنه كبار رجال الدولة بسياسة الأمر وتدبير الحكم حتى يكبر . وانتهز أحمد بن أبى دواد عدو الوزير هذه الفرصة السانحة ليبايع المتوكل ، ويطعن غريمه هذه الطعنة القاتلة .

لقد كان يكفى لشفاء أحقاد المتوكل على الوزير أن يبعده عن الحكم ، أو يستصفى أمواله ، اذا لم يكن الصفح من خلائقه ..أما أن يقتله على هذه الصورة ، ويترك جثته للكلاب تنهشها كما روى الطبرى ، فقد بز أسلافه فى الجرم ، ولطخ يديه بأبشع جريمة سياسية ارتكبت فى عصر العباسيين .

وهكذا أسدل الستار على حياة الوزير الكبير محمد بن عبد الملك الزيات ، وانطفأ ذلك السراج الذى أضاء بلاط العباسيين بعلمه وأدبه ، وحسن سياسته ، مدى خمسة عشر عاما ، وخبا ذلك القبس الذى أومض سناه فى أندية الأدب ، ومجالس العلماء ودواوين الحكم ، وانهار صرح شامخ من صروح الأعلام فى مأساة صارخة ، ونهاية يندى لها الجبين ، ويتفزع من أجلها ضمير الانسانية .

ويالها من نهاية !! ..